

تاريخ الحملة إلى القدس

تأليف فولتشر أوف تشارترز

مقدمة فولتشر

إنه لمبهج للأحياء ونافع للأمم ، القراءة في الصحف المرقومة أخبار أعمال شجعان الرجال ، خاصة الذين يقاتلون في سبيل الرب ، أو أن تتناقلها السنة المؤمنين بكل خشوع ، لأنها محفوظة في حافظتهم ، كيف استجاب هؤلاء لأوامر الأنجيل ، وتخلو عن متاع الدنيا وهجروا آبائهم وأزواجهم وأموالهم وإن عظمت ، يدفعهم ذلك الى اتباع الرب وتكريس أنفسهم له (متى : ١٢ - ٢٩ ، ١٦ - ٢٤ . مرقس : ١٠ ، ٨ / ٣٤ ، لوقا : ١٨ - ٢٩ ، ٩ ٢٣) . وأما الأمم الذين ماتوا في سبيل الرب ، فإن جليل الفائدة تعود عليهم لدى تذكر الأحياء من المؤمنين سير سلفهم وأعمالهم الصالحة الورعة ، فذلك يدفعهم إلى الدعاء لموتاهم والترحم على أرواحهم ، وهب الصدقات المصحوبة بالصلوات في سبيلهم ومحبة بهم سواء أعرفوهم أم لم يعرفوهم .

لذلك قمت بدافع طلب شديد الاحاح من بعض الأصدقاء ، فدونت بكل عناية وترتيب أخبار أعمال الفرنجة الرائعة ، حين استجابوا لأوامر الرب العلوية ، وانطلقوا مسلحين للقيام بالحج إلى القدس ، لعبادة المخلص ، ولقد حكيت بأسلوب بسيط متسم بالصدق ، مارأيت أنه جدير بالذكر ، ودونت بقدر ماتمكنت ماشاهدته بنفسه أثناء تلك الرحلة .

ومع أنني لا أملك الجراة على مقارنة أعمال الفرنجة السالفة الذكر بالأعمال العظيمة والانجازات الهامة للأسرانييليين والمكابيين وكثير من شعوب الله المختارة ، التي منحها معجزات كثيرة وخارقة ، أنا لاظن أن أعمال الفرنجة تقل شأننا عنها ، لأن المعجزات العجائبية الربانية تحققت مرارا بين صفوفهم ، وهذا

ما تسعى جاهدا لبعث نكراه بالتدوين ، وكيف يتميز الاسرائيليون أو المكابيون عن الفرنجة ، فالحق أقول إننا شهدنا هؤلاء الفرنجة في الأرض عينها والبلاد ذاتها ، وهم في الغالب على مقربة منا ، أو سمعنا عنهم في أماكن نائية عنا ، وهم يقاسون من الضرب والصلب وتمزيق الأعضاء والموت بالذئب أو بتقطيع الأوصال أو بأية واسطة أخرى توصلهم إلى الشهادة ، وذلك كله في سبيل المسيح وحباً به ، لم توقفهم التهديدات ولم تقعدهم الاغراءات ، بل لو كان سيف الجزار على مقربهم منا لما تحاشاه معظمنا لنيل الشهادة حباً في المسيح .

هناك آلاف مؤلفة ممن لاقى حتفه ونال الشهادة المباركة في هذه الرحلة ، من الذي عندما سيسمع بأفعال الرب هذه - مهما اشتدت قساوة قلبه - لن تجيش أعرق مشاعر الورع في نفسه ، ولا يشرع بحمد الرب وتمجيده ؟ ليس هناك من لن يأخذه العجب عندما يرى كيف تمكنا - ونحن قلة - في قلب بلاد أعدائنا لا أن نقاوم فقط بل أن نعيش أيضاً ؟ من الذي سمع قط بمثل هذا ، فلقد كان إلى جوارنا مصر والحبشة من جانب ، وبلاد العرب وسورية والجزيرة والعراق وفارس من جانب آخر ، إن هاهنا بحر عظيم فصلنا عن بلاد المسيحيين ، لقد وضعنا الرب بإرادته بين أيدي الجزارين غير أن زراعه الجبارة قد حمتنا ودفعت عنا « طوبى للأمة التي الرب الهها » (مزامير : ١٢ / ٢٣) سوف أحكي فيما يلي تاريخ بداية هذا الفعيل ، وسأروي كيف كرس جميع شعوب الغرب أنفسهم وسواعدها بلا حدود في سبيل انجاح هذه الحملة .
تنتهي هنا مقدمة فولتشر

الكتاب الأول

بدا هنا هذا الكتاب الأول من أعمال الفرنجة حجاج القدس

المجمع الذي عقد في كليرمونت

في السنة خمس وتسعين بعد الألف من تجسيد مولانا يسوع المسيح ، عندما كان هنري - المدعو بالامبراطور - يحكم في المانيا ، والملك فيليب في فرنسا ، تعاضمت الشرور في مختلف أنحاء أوروبا نتيجة لضعف الايمان ، وكان أوربان الثاني قد حكم في هذه الأونة في روما ، وكان رجلا رائعا في الذات والسمات ، مناظلا بجلد وحكمة في سبيل إعلاء مكانة الكنيسة المقدسة .

وكان قد رأى الناس جميعا من كهنة وعلمانيين قد داسوا الديانة المسيحية بأقدامهم ، واهملوا السلام أيما إهمال ، وتنازع أمراء البلاد احدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف ، وشهد الناس يسلبون متاع الدنيا بعضهم من بعض ، ورأى كثيرا من السجناء يحتجزون بدون حق ، ويلقى بهم بكل وحشية في غياهب السجون ، حتى تدفع فديتهم العالية جدا ، أو يعانون من عذاب مثلث الشرور : الجوع والعطش والبرد إلى أن يلقوا حتفهم سرا ، ثم أبصر الأماكن المقدسة وقد دنست حرمانتها والبيع والكنائس قد التهمتها النيران ، ولم يسلم أحد من البشر من الأذى ، وباتت الشؤون البشرية والربانية موضع سخرية واستخفاف .

وبعيد سماع أوربان أن الأتراك قد اجتاحوا المناطق الداخلية من الأراضي البيزنطية ، وأن المسيحيين قد وقعوا تحت نير شعب متوحش فتاك ، حركته مشاعر التقوى والورع ، فاجتاز - مدفوعا بمحبة الرب - الجبال ، وهبط إلى أراضي فرنسا ، ودعا إلى عقد مجمع مقدس في أوفيران في مدينة كليرمونت ، وتكون هذا

المجمع - الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي - من ثلاثمائة وعشرة أعضاء من الأساقفة والشمامسة . والتأم الجمع في اليوم المحدد حول البابا أوربان ، فألقى فيهم خطابا بليغا مؤثرا تناول فيه الهدف الذي دعا من أجله ، وأخبر المجتمعين بصوت مفعم بالحزن والأسى عن معاناة الكنيسة ، وألقى موعظة مؤثرة حول العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحطت فيه الديانة إلى الدرك الذي وصفناه من قبل .

وبكل خشوع حث الجميع على العمل في سبيل استرجاع قوة إيمانهم ، وأن يبعثوا في أنفسهم العزم على التخلي عن إغواءات الشيطان وأن يجهدوا في سبيل استرداد الكنيسة المقدسة لمركزها ومجدها التليد ، بعدما حط من شأنها الأشرار .

خطبة أوربان في المجمع

أيها الأخوة الأحبة ، يا عبيد الرب في هذه البلاد ، لقد قدمت إليكم أنا أوربان المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، قدمت في هذه الظروف الصعبة والحرجة بمثابة نذير من العناية الربانية و « إنني لأمل أن يكون وكلاء سرائر الرب صالحين مؤمنين لا يشوبهم رياء » (كورنثيوس : ٤ / ١ - ٢)

لئن كان أحدكم مخادعا أو منجرفا بعيدا عن التعقل والاعتدال والعدل محاربا لكلمة الرب على الأرض فمأسسى - بعون من الرب - إلى تقويم اعوجاجه ، فالرب قد أقامكم وكلاء على بيته حتى إذا ما حان الوقت زودتموه بما تيسر من القوت ، وستنزل عليكم البركة المؤكدة إذا ما وجدكم رب الوكالة مؤمنين (متى : ٢٤ - ٤٥ - ٤٦)

إنكم تسمون رعاه ، فلا تتصرفوا كالأجراء ، كونوا رعاة

حقيقيين ، واحملوا عصيكم بأيديكم ولا تغفلوا ، واحرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من جميع الجوانب (يوحنا : ١٠ / ١٢ - ١٣) أما إذا خطف الذئب خروفا نتيجة لاهمالكم وتقصيركم ، فإنكم لم تخسروا ما أعده الرب لكم فقط بل سيلقى بكم في جحيم الذين حقت عليهم اللعنات ، بعدما تفرعكم عصا الجراد . وكما جاء في الكتاب المقدس « أنتم ملح الأرض » (متى : ٥ / ١٣) ولكن إذا أخفقتكم فكيف يتم التمليح ؟ أهكم من الرجال ينبغي أن يملحوا ؟ (متى : ٥ / ١٣ . مرقس : ٩ . لوقا : ١٤ / ٣٤) من المتوجب عليكم أن تملحوا بملح حكمتكم المزيلة للفساد ، الجهلة الذين يتنافسون على ملذات هذا العالم ، وإلا فإنهم سيتحولون إلى حجارة نتيجة لطغيانهم ، وسيجدهم الرب عندما يخاطبهم مفتقرين إلى ملح الحكمة .

لأنه إن وجد فيكم دودا - أي آثام - بسبب قعودكم عن القيام بواجباتكم ، فسيأمر بالحال بترحكم مرنولين في قعر الجحيم (مرقس : ٩ / ٤٨) وحيث أنكم لن تستطيعوا تعويض هذه الخسارة له ، إنه سيحكم عليكم باللعنة وسيبعدكم بالحال من حضرته ويحرمكم من رعايته . غير أن الذي يملح يجب أن يكون حكيما بعيد النظر متواضعا ، عالما محبا للسلام ، يفتش عن الحقيقة ، تقيا طاهرا ومنصفا عادلا ، إذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما ، أو المتفاخر غيره متواضعا ، والمدنس غيره نقيا ؟ إذا كان المرء يمقت السلام فكيف يمكنه إحقاق السلام ؟ وإذا ماتلوث يد إنسان فكيف يمكنه تطهير ماتلوث بدنس آخر ؟ ولقد ورد في الكتاب « إن كان أعمى يقود أعمى يسقطان معا في هوة » (لوقا : ٦ / ٣٩)

وبناء عليه أصلحوا نواتكم أولا حتى لاتستحقوا الملامة ، وإذا ما أصلحتم من هم تحت رعايتكم ، وإذا وددتم حقا أن تكونوا احياء الرب ، فاعملوا متطوعين مايرضيه .

اتمنى عليكم بشكل خاص رعاية شؤون الكنيسة والمحافظة على نواميسها حتى لاتضرب مرطقات المتاجره بالدين جنورها بينكم ، وكونوا على يقين ان الباعه والشارين سيلاحقهم سوط الرب (متى : ٢١ / ١٢ مرقس : ١١ / ١٥ . لوقا : ١٩ / ٤٥ ، يوحنا : ٢ / ١٥) ولسوف يجرون بكل تعاسة عبر بوابات ضيقة إلى الهلاك الكلي (لوقا : ١٣ / ٢٤ . متى : ٧ / ١٣) عليكم صيانة حرية الكنيسة بجميع مراتبها وحمايتها من القوى الدنيوية ، وسددوا العشور من خيرات الأرض جميعا إلى الرب بكل أمانة دون أن تباع أو تحتجز .

ولتنزل اللعنة على كل من يختطف اسقفا ، ولتحق اللعنة على كل من يختطف كاهنا أو راهبا أو راهبة ، أو احدا من خدامهم أو من الحجاج أو التجار ، أو يمسهم بالأذى ، وليلحق الطرد والحرمان من الكنيسة كل اللصوص وحارقي الثبوت والذين يمدون إليهم يد العون .

ولقد قال غريغوري : « علينا أن نقوم بكل خصوصيه مدى شدة العقوبة التي سنعاقب فيها من يسرق الآخرين ، وإذا ما حقت عليه اللعنة في الجحيم فلانه كان سخيا بما لم تملك يداه » وهذا ما حصل للرجل الغني الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس (لوقا : ١٦ / ١٩ - ٣٠) فهو لم يعذب بسبب سرقة لاموال الآخرين فقط بل لانه أساء أيضا استعمال الثروة بعدما حصل عليها .

لابد انكم يا اخوتي الاحباء قد شهدتم عالمكم وقد انتشر فيه الشر وعات به فسادا منذ امد بعيد ، ولاسيما في بعض نواحي مقاطعتكم فهذا الذي قيل لكم وقيل لنا ، ولعل من اسباب تقصيركم في إحقاق الحق وإزالة الظلم أنه لايكاد احد منكم يملك الجرأة على السفر في الطرقات مؤملا السلامة خوفا من السلب على يد قطاع الطرق في النهار ، أو اللصوص في الليل ، فهو يعرض للسلب والمخاطر سواء اكان داخل العمران أو خارجه .

لهذا كله يتوجب عليكم تجديد الهدنة المعروفة باسم « هدنة الرب » التي اقرها الابطاء المقدسون منذ زمن بعيد ، وإنني أرغب إليكم بكل إخلاص أن تراعوا الأخذ بها في كل أبرشية من الأبرشيات ، لابل اقول إذا ماخرق انسان - لكبر في نفسه أو لطمع - شروط هذه الهدنة عامدا متعمدا فليحق عليه الحرمان بقوة السلطة المخولة لي من الرب ، وبإرادة هذا المجمع .

ماحرض به البابا بشأن الحج إلى القدس :

وبعدما جرى الوفاق على هذه الأمور جميعا ، نهض جميع الحضور من اكليروس وعلمانيين وقدموا بلا تكلف الشكر للرب على ماتفوه به البابا أوربان ، وعاهدوه مخلصين بالتقيد بكل مايرسمه ، بيد أن البابا ، بادر إلى الاستطراد قائلا : إن محنة لاتقل عن الذي ذكرت بل تزيد ، ذلك أنها بالحري أشد المحن واقساها على الاطلاق ، هي التي نزلت بالمسيحية في طرف آخر من العالم .

وتابع يقول : بما انكم ياابناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم ، وأن تكونوا اعظم اخلاصا مما مضى في الحفاظ على حقوق الكنيسة ، يتوجب عليكم ، وقد قوم الرب اعوجاجكم ، القيام بواجب ملح لكم وللرب ، يمكنكم خلال ادائه اظهار مدى صدق طوبيتكم عليكم وبكل سرعة ان تأخذوا المساعدات الى إخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، انهم بحاجة ملحة لها : ان العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الاراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في اراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأخذوا عددا كبيرا من الأسرى ودمروا الكنائس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، واذا لم تتصدوا لهم الآن ، فانهم سيمدون سلطانهم أعمق وسيشربونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب اتوجه اليكم بالرجاء والتحريض ، وانه ليس أنا الذي اتوجه اليكم ويحرضكم ، بل الرب على لساني أنا نائب المسيح ، اتوجه الى الفقير منكم والغني ، واسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل اخواننا ، وان تقدموا المساعدة في وقتها الى عباد المسيح ، انني اخاطب جميع هؤلاء الحضور ، وأعلن الشيء نفسه الى جميع الغياب ، ولكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر : ان جميع الذين يذهبون الى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار سيتم غفران ذنوبهم بالحال ، وانني أمنح هذا من خلال السلطة المضافة علي من قبل الرب .

يا للخزي ويا للعار اذا ما انتصر علينا هذا الجنس المتسم بمثل هذه الدناءة والحقارة ، اذا ما انتصر هذا الجنس الذي تستعبده الشياطين والعاريت على شعب انعم الرب القدير عليه وتباهى باسم المسيح ، أه كم من المعائب ستوسمون بها - حتى من الرب نفسه - اذا لم تقوموا بتقديم العون الى الذين يعدون مثلكم في الدين المسيحي .

وتابع البابا يقول : أنه يتوجب على الذين اعتادوا - حتى الآن - على الاقتتال مقترفين للآثم ، منغمسين في صراع ضد المؤمنين ، أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل ، على الذين طال انشغالهم بالصومانية أن يتحولوا ليكونوا جندا للمسيح ، وليقم الذين حاربوا في الماضي ضد الهم واخوانهم بالحرب الآن ضد البرابرة ، دع الذين كانوا يكتسرون لقاء دربهات من الفضة (متى : ٢٠٢٧) يحصلون الآن على ثواب سرمدى ، ودع الذين كانوا ينهكون انفسهم ويدمرون أجسادهم وأرواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا ؟ سيقف الفقراء والتعساء أولا على طرف

وسيقف الأغنياء حقا على طرف آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف اعوانه .

لاتدعوا حائلا يحول دون الذين يريدون الذهاب ، دعوهم يعدون أمورهم ويجمعون أموالهم ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل فصل الربيع ، عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت إشراف الرب وقيادته .

اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

بعدما تفوه البابا بهذه الكلمات ، ثارت حمية الحضور جميعا ، ووعد العديد منهم بأن يذهبوا على الفور ، وأن يحتوا من لم يشهد الاجتماع أن يفعل الشيء نفسه ، وكان ذلك اعتقادا منهم أن لاشيء يفوق هذه المسألة أهمية ، وكان بين الحضور اسقف لى بوي واسمه أدهر ، وهو الذي غدا فيما بعد القائد الروحي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره الجيش برمته والهمة بكل حزم كيف يؤدي مهمته .

وبعدما أقر المجمع هذه الأمور التي وصفنا ، وتمت الموافقة عليها بالاجماع ، منحت تبريكات الغفران ، ورفض الاجتماع ، وما أن عاد الجميع الى مساكنهم حتى أخبروا الذين لم يعلموا بكل ماجرى ، وإثر انتشار قرارات المجمع في جميع أطراف المقاطعات ، وافق الجميع وأعطوا موثيقهم بالحفاظ على السلام ، والتقيد بشروط « هدنة الرب » .

وفي الحقيقة ما أن سمع كثير من الناس من مختلف المراتب بما حدث وبغفران الذنوب حتى بادروا الى اعطاء موثيقهم والاقسام على أن ينطلقوا بأرواح طاهرة سواء أمروا بالذهاب أم لم يؤمروا .

اواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا رؤية الصليبان المصنعة من
الحريز او من السندس المذهب ، او قماش فاخر آخر ، وقد خاطها
الحجاج من الفرسان والعامّة على اكتاف اريدتهم ، فلقد فعلوا هذا
كله طاعة لأوامر البابا اوربان ساعة ادانهم القسم بالذهاب ، ولقد
كان جديرا أن يتولى شعار الرب ورمز انتصاره حماية جنده وتثبيت
هوية الذين كانوا يعدون العدة في سبيل الدفاع عن مجده ، وبما أنهم
حلوا نفوسهم بشعار دينهم هذا ، فانهم نالوا في النهاية من الرمز
ذاته الحقيقة بحد ذاتها ، لقد حملوا الشارة الخارجية حتى يدركوا
في النهاية الحقيقة الداخلية .

ومن الجلي أن النوايا الطيبة تقود الى انجاز الأعمال
الطيبة ، وأن العمل الطيب يؤدي الى خلاص الروح ، وبناء عليه ان
أفضل مايقوم به المرء هو أن يدخر نخيرة له من الأعمال
الحسنة ، حتى يتأمن له من خلالها غذاء للروح ، فليتوكل امرئ أن
يعمل صالحا حتى يحقق عملا أصلاح ، وفي النهاية سيحصل - اذا
كان جديرا - على أفضل ما يكون ، وهذا مالا تنقص قيمته الى
الأبد .

شعر

وبهذه الوساطة شرع اوربان الرجل العاقل المبجل
بعد التأمل ، بعمل اشرقت منه الدنيا .

لقد أعاد احلال السلام ، ووطد من جديد حقوق الكنيسة كسالف
عهدها ، كما وبذل جهودا مضمّنية لطرد الكفار من بلاد
المسيحيين ، وبما أنه ناضل بلا هوادة في سبيل تمجيد كل شيء
مصدره الرب ، فقد دان له الجميع بالطاعة وقبلوا سلطته الأبوية .

النزاع بين البابا أوربان وجيلبرت :

أقام الشيطان ، الذي يسعى دوما وبلا انقطاع لتدمير الانسان ، ويطوف في الأرض كالسبع المفترس الباحث عن فريسة يلتهمها (بطرس : ٨٥-١) أقام ليثيغ الفوضى بين الناس ، منافسا للبابا أوربان اسمه جيلبرت ، وقد بدأ هذا الرجل ، مدفوعا بالرعونة ، ومدعوما بصفاقة امبراطور بافاريا سالف الذكر ، باغتصاب الكرسي البابوي ، وبينما تمسك غريغوري المعروف باسم هيلديبراند ، وهو البابا الذي تقدم على أوربان بمنصبه البابوي في الكنيسة ، منعه جيلبرت نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس .

وبعد ما تمادى جيلبرت في تعنته ، ارتأى اتقياء الناس عدم الاعتراف به ، وبعد وفاة هيلديبراند جرى انتخاب أوربان بصورة شرعية ، وتم ترسيمه من قبل الكرادلة ، وقد مال القسط الأكبر من الناس وأكثرهم ورعا الى طاعته .

وأفلح جيلبرت ، بدعم من الامبراطور السالف الذكر وحماس جل اهل روما ، في ابعاد أوربان عن كنيسة القديس بطرس لمدة طويلة ، وطاف أوربان خلال الفترة التي ابعدها عن كنيسته في انحاء البلاد ساعيا الى تقريب القلوب من الرب وتصحيح اعوجاج نوي الغواية .

وبحكم احتلاله للمركز الرئيس في الكنيسة ، ازدادت غطرسة جيلبرت ، بيد انه أبدى تهاونا تجاه اهل الخطيئة ، ومارس ومعه جماعته ظلما وظانف منصب البابوية ، ولم يعبأ بأعمال أوربان وسعى الى ابطال فعاليتها .

غير ان أوربان قد تمكن في السنة نفسها التي مر بها الفرنجة في

روما في طريقهم الى القدس ، من الاستيلاء على السلطة الكنسية بفضل عون تلقاه من سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا ، كانت في تلك الأونة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها ، وكانت جيلبرت وقتذاك في المانيا ، وهكذا صار لروما بسابوان، الأمر الذي أدى الى حيرة الناس بشأن من يطيعون منهما ، والى من يعودون ومن يمنح الغفران الى مرضاهم ، وفضل بعضهم هذا واثر آخرون . ذاك .

وكان جليا لنوي العقول من الرجال ان اوربان كان هو الأفضل ، وفي الحقيقة ان الأفضل هو الذي يضبط نفسه ويتحكم بعواطفه ويضبطها كما لو كانت عدوة له .

وكان جيلبرت بحكم كونه أسقفا لمدينة رافينا ثريا جدا ، وكان يخال في مظاهر البذخ والترف ، ومن المثير للدهشة ان هذه الثروات لم تشف غليله ، وبناء عليه هل يعقل أن يعد نموذجا للحياة المثلى الذي يعشق المظاهر ويتناول بكل قحة على اغتصاب عرش سلطة الرب ، وان هذا المنصب لايجوز حيازته بالقوة بل ينبغي تقبله بكل تواضع وخشوع .

وليس من الدهش ان أصيب العالم بأسره بالقلق والحيرة ، فعندما تضطرب أمور كنيسة روما ، التي هي مصدر التقويم لجميع المسيحيين ، سيصيب المرض المعدي الساربي في اوصالها الرئيسية جميع الأعضاء التابعين لها ، وسيزداد ضعفهم بسبب معاناتهم من أجلها .

أجل الحق يقال ان هذه الكنيسة هي أمنا ، التي تربينا في أحضانها ونشأنا على مثلها واعتدنا ، واشتد عودنا بمشورتها ، أجل هذه هي الكنيسة نفسها قد ضربت بكل قحة من قبل جيلبرت الأرعن المتكبر ، ومعروف أنه عندما يصاب الرأس تتداعى بقية الأعضاء في الحال .

شعر :

عندما يصاب الرأس
يصيب الأذى بقية الأعضاء .

وعندما مرض الرأس على هذه الصورة ، ازداد الضعف في الأطراف نتيجة الألام التي انتشرت في جميع أرجاء أوربا ، حيث داس الناس ، سواء أكانوا أقوياء أم ضعفاء ، وسيان أكانوا داخل الكنيسة أم خارجها ، بأقدامهم على الفضيلة والسلام والدين ، وبات من المتوجب وضع حد لهذه الشرور جميعا ، وتدبرت الخطة التي أحكمها البابا أوربان أن يتحول الصراع والقتال - الذي دار حتى الآن بين المسيحيين - فيوجه ضد الكفار .

والآن سأوجه قلمي نحو تدوين التاريخ بغية اخبار الذين لم يعلموا بما حدث لرحلة القاصدين الى القدس ، وما جرى لهم من وقائع وسأبين كيف توجت خططهم وأعمالهم بالنجاح بعون الرب ، فلقد جمعت أنا فولتشر أوف تشارترز ، الذي سافرت مع الحجاج ، بكل دقة وعناية فائقة ، ذلك كله في ذاكرتي ، من أجل الأجيال المقبلة ، ودونته تماما كما شهدته بنفسي .

اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

شرع في شهر اذار من عام ١٠٩٦ بعيد عقد المجمع الذي دعا اليه البابا أوربان الثاني في تشرين الثاني حسبما نكرنا في أوفيزن كليرمونت ، بعض الذين بادروا الى تجهيز أنفسهم وأكملوا اعداداتهم ، شرعوا في الرحلة المباركة ، وسار اثرهم اخرون في نيسان او ايار ، وفي حزيران او تموز او حتى في آب وايلول وتشرين

أول كل حسب مقدرته على توفير الموارد الكافية لسداد نفقات التكاليف .

ومن نعم الرب أن الحبوب والنبيد وجدت في ذلك العام بكميات وافرة جدا في جميع البلدان ، وبذلك توفر الخبز خلال الرحلة للذين حملوا صلبانهم واختاروا اتباع طريق الرب .

ولما كان من المفيد الاتيان على ذكر أسماء الحجاج في تلك الرحلة فانني انكر : هيوج الكبير أخو فيليب ملك فرنسا ، فهو كان أول الأبطال الذين عبروا البحر ، فقد نزل هيوج مع رجاله في ديرازو ، وهي مدينة بلغارية ، غير أنه اندفع بكل طيش على رأس قوة صغيرة ، فاعتقله سكان المنطقة وحملوه الى امبراطور القسطنطينية حيث بقي فترة من الزمن محروما من حريته .

وبعده بوهيموند أبوليا بن روبرت غويسكارد ، من شعب النورمان ، الذي سار بجيشه على الطريق نفسه .

وبعده غودفري ، دوق اللورين ، الذي سافر عبر هنغاريا على رأس قوة أكبر .

وبعده ريموند كونت بروفانسال ومعه القوط والكاسكون ثم أدهم أسقف لي بوي ، وزحف هؤلاء عبر دناشيا .

وكان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك ، وعندما جمع حوله حشدا كبيرا من الرجالة ، وعددا ضئيلا من الفرسان ، وأصبح بعد ذلك وولتر المعدم ، وكان جنديا قديرا ، قائدا لهذه المجموعة ، وقد لاقى وولتر هذا منيته مع عدد كبير من أعوانه بين نيقوميديا ونيقية على أيدي التركمان .

وبدأ في شهر تشرين الأول روبرت كونت نورماندي ، ابن وليم

الفتاح ، ملك انكلترا ، رحلته بعدما حشد جيشا كبيرا من النورمان والانكليز والبريطانيين ، وقد مضى معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج اخته ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، ومعه حشد من النبلاء .

وهكذا تقاطرت هذه الحشود العملاقة من جميع البلدان الغربية ، وتعاضم حجم الجيش يوما اثر يوم ، وتضخم أثناء زحفه من شرانم صغيرة قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش ، وحصى أعدادا لاتحصى من بلاد متعددة تنطق بلغات شتى ، انما لم تجتمع في جيش واحد الا مقابل مدينة نيقية .

ثم ما الذي أزيد فأقوله ؟ لقد زحفت الجزر في البحار والممالك في الأرض حتى أيقن الانسان أن نبوءة داود قد تحققت بقوله : « كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب » (مزامير : ٩٨٥) وحسبما قال الذين أتوا بعد ذلك بحق : « لنسجد عند موطن قدميه » (مزامير : ٦/١٣) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الانبياء ، ولن نكرر ذلك هنا ثانية حتى لانسبب الملل .

كم أصابهم من أسى ، وكم أجهشوا في البكاء وندبوا وانتحبوا ، عندما فارقوا رفاقهم وأزواجهم الأعزة عليهم وأولادهم وممتلكاتهم مهما كثرت ، وآباءهم وأمهاتهم وأخوانهم ونويعهم وآلهم الآخرين .

ومهما تدفقت دموع مودعيهم أمامهم ، فان احدا منهم لم يتقاعس عن الذهاب ، لأنهم تركوا ، في سبيل محبة الرب ، مايملكون ، وكلهم ثقة وقناعة سينالون مائة ضعف مما وعد الرب لمحبيه .

(متى : ١٩ ٢٩ . مرقس : ١٠ ٢٩ - ٣٠ . لوقا : ٢٩/١ - ٣٠) .

ولقد أخبر الزوج زوجته عن موعد عودته ، مؤكدا لها ، أنه اذا ماكتب الرب له السلامة فسيعود اليها ، ثم طلب من الرب أن يعتني بها ، وقبلها مطولا ، ووعدها من خلال دموعه أنه سيعود ولكنها لخوفها من أنه لن تقع عينها عليه ثانية ، أغمى عليها ، وهي تترحم على من تحب ، وتندب فقدانه كما لو أنه فارق الحياة فعلا ، ثم انه غادر ، كمن ليس في قلبه شفقة - مع أنه كان شفوفا - وكمن لم يتحرك لدموع زوجته ولحزن محبيه - مع أن قلبه قد امتلأ حزنا - لقد غادر بكل عزم وحزم . ثم ماذا نستطيع أن نقول أكثر مما قلناه ؟ بقدر من الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا (متى : ٤٢/٢) .

رحلة كونت النورمان والذي جرى في روما خلال وجودهم هناك :

ثم عبرنا نحن الفرنجة الغربيين غاليا ، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة ، وعلى مقربة منها التقينا بالبابا أوربان الثاني ، وقد تحدث معه روبرت كونت نورماندي وستيفن كونت بلوا وكذلك فعل آخرون منا من الذين رغبوا في محادثته ، وبعد أن منحنا بركاته سرنا الى روما بحبور وغبطة .

وعندما دخلنا البازيليكا في كنيسة القديس بطرس ، وجدنا رجال جيلبرت ، ذلك البابا الأحمق يقفون أمام المذبح ، وقد تخاطفوا باجرام - وسيوفهم مشرعة - الهبات المقدمة على المذبح ، وسعى بعضهم وركض في ردهات الكنيسة وأخذوا يرموننا بالحجارة ونحن راكعون في الصلاة ، ذلك أنهم لم يروا أحدا مخلصا لأوربان إلا وأزمعوا على قتله في الحال.

وكان رجال البابا أوربان يحرسونه في واحد من أبراج البازيليكا ، بكل عزيمة واصرار على مقاومة أعدائه ، وقد أصابنا

الاسى عندما رأينا الأثام التي تقترب هناك ، ومع هذا تمنينا في قرارة نفوسنا الا يقع حادث إلا انتقاما للرب ، وخلال هذا رجع العديد من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقد أضعفهم الخوف والجبن.

أما نحن فقد واصلنا سفرنا عبر أواسط كمبانيا ووصلنا الى باري ، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطئ البحر ، وصلينا هناك في كنيسة القديس نيقولا للرب بكل حرارة ، ثم توجهنا الى المرسى على أمل الجواز في الحال ، غير أن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للمخاطر ، فاضطر روبرت كونت نورماندي الى الانسحاب الى كالبريا حيث أمضى الشتاء ، أما روبرت كونت الأراضي المنخفضة فقد عبر في الحال.

ووجد في تلك الآونة عدد كبير من العصابة أنفسهم بلا معين ، وخافوا من الحاجة في المستقبل ، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ، ورجعوا بخسة ونذالة الى ديارهم ، لذلك لحقهم ازدياء الرب ، وحل بهم الخزي والعار .

غرق الحجاج وظهور المعجزة الربانية:

ومع عودة ربيع عام ١٠٩٧ ، عاد في آذار كونت نورماندي وكونت ستيفن بلوا مع أتباعها نحو شاطئ البحر ، ذلك أن ستيفن كان أيضا ينتظر الوقت المواتم للابحار ، وعندما تم تجهيز الاسطول في مطلع نيسان الذي وافق يوم الصعود (٥ - نيسان) ركبوا البحر في ميناء برنديزي.

« يا لعمق غنى الرب وحكمته وعلمه ، ما أبعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء » (رومية: ١١ / ٣٣) إذ أننا شهدنا واحدة من السفن الكثيرة القريبة من الشاطئ وقد انشطرت من وسطها

الى نصفين دون سبب واضح وابتلعها اليم ، فهلك بذلك أربعمائة شخص من الجنسين ، وصعدت ارواحهم الى عليين مصحوبة بصلوات الغفران الى الرب .

وبعدما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث القرقي ، وجدوا ان الصليبان قد حفرت فعليا في جلد بعضهم فيما بين الكتفين ، ولكم هو رائع ان شعار الغداء هذا الذي وضعوه فوق ملابسهم وهم احياء ، سيظل بارادة الرب رمزا لايمان هؤلاء الذين ضحوا بنفوسهم في سبيله ، زد على هذا كم كان موائما ان اظهرت هذ المعجزة لكل من شاهدها ان الاموات قد حصلوا برحمة من الرب - على الامن والسلام في الحياة السرمدية ، وهكذا تحققت نبوءة الكتاب المقدس بدون ادنى لبس و « العادلون وإن ماتوا قبل اوانهم سيكونون بأمان » .

وكان قد نجا عدد ضئيل من الركاب بعدما صارعوا الموت ، وابتلعت الامواج خيولهم وبغالهم وتم فقدان الكثير من الاموال ، وقد روعنا مشهد هذه الكارثة الى درجة ان بعض ضعاف النفوس ممن لم يكونوا قد صعدوا الى السفن بعد ، انتكسوا على اعقابهم ، وتخلوا عن الحج قائلين إنهم لن يتبقوا بهذا البحر الغادر ويؤمنوه على ارواحهم ابدًا .

اما نحن فقد اقلعنا في البحر - وكلنا ثقة واعتماد على الرب القدير - تدفع بأشروعتنا ريح بطيبة ، وتزعق من حولنا ابواق عديدة ، ومع حلول اليوم الرابع وصلنا الى البرق قرب مدينة ديرازو ، أي على بعد عشرة أميال كما يخيل الي ، ودخل اسطولنا في مرسيين ، ونزلنا الى اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا ، وعبرنا من امام المدينة المذكورة ثم سرنا عبر اراضي البلغار وسط جبال شاهقة وجروف مهجورة حتى وصلنا الى نهر يتدفق بسرعة يدعو سكان المنطقة باسم نهر الشيطان ، وكانت تسمية محقة إذ شاهدنا العديد من العامة يفرقون في هذا النهر بعدما املوا في ان يخوضوه خطوة

خطوة ، غير أن التيار جرفهم بقوة هائلة ، ولم يستطع أحد من الشهود انقاذ أيا منهم ، ولقد نرشنا عليهم دموع الشفقة الوافرة ، ولولا أن الفرسان قدموا العون للرجالة فأجازوهم على ظهور خيولهم المدربة لهلك العدد الأكبر منهم ، ثم عسكرنا على مقربة من الشاطيء ، وأمضينا ليلتنا هناك تحيط بنا جبال شاهقة خالية من السكان .

مع اشراقه الصباح صدحت الأبواق ، فشرعنا نذسلق جبل باجولاتس (باجورا) وبعدها تسلقناه مررنا بمدن : لوكريسا وموناستير ولوفيانث (اديسا) وستيلالا ، ثم وصلنا الى نهر داريوس (فاردار) ومع أن هذا النهر يقطع عادة بالقوارب غير أننا خضناه بعون الرب وجزناه بدون قوارب ، وعسكرنا في اليوم التالي أمام مدينة سالونيك ، وهي مدينة تزخر بالسلع من كل جنس .

وبعدما توقفنا لمدة أربعة أيام عبرنا بلاد مقدونية عبر وادي فيلبي ثم عبرنا نكريسوبولس و كريسستوبولس ، بيريتوريا ، و تيسنوبوالس ، و ماكرا ، و ترايانوبولس ، و نيبابولس ، و بانا بوكس ، و رودوستو ، و هرقلية ، و سلامبريا ، و ناتورا وصولا الى القطنطينية ، التي عسكرنا أمامها و استرحنا لمدة أربعة عشر يوما .

ولم نحاول الدخول الى المدينة ، لعدم موافقة الامبراطور (لأنه كان يخشى أن نتامر عليه ونسبب له الأضرار) لذلك توجب علينا شراء حاجياتنا اليومية من خارج الأسوار ، وقد احضر الأهلون هذه السلع بأمر من الامبراطور ، ولم يسمح لنا بدخول المدينة إلا بمعدل خمسة أشخاص أو ستة في كل ساعة ، وهكذا في الوقت الذي كان بعضنا يغادر المدينة كان آخرون يدخلونها للصلاة في كنائسها .

من القسطنطينية الى نيقية:

كم هي جميلة مدينة القسطنطينية لا بل كم هي رائعة ، كم فيها من كنيسة ودار بنيت من قبل امهر الصناع ، إن ما يراه الانسان في شوارعها العريضة لا بل في أزقتها الضيقة ، من أعاجيب شيء لا يحصى ، ومن المضحى أن يحصى الانسان الثروات التي فيها من الذهب والفضة ، والثياب بجميع اجناسها والآثار المقدسة ، فالتجار يجلبون اليها من أسفارهم العديدة ، كل ما يحتاج إليه بني البشر ، وبتقديري أن ما لا يقل عن عشرين ألف خصي يعيشون فيها على الدوام.

وبعدما استجمعنا بما فيه الكفاية ، عقد قادتنا - بعد التداول - اتفاقية مع الامبراطور ، وأعطوا إيمانهم عليها ، وكان غودفري وبوهيموند اللذان تقدمانا الى هنا ، قد وافقا عليها ، غير أن الكونت ريموند رفض المصادقة عليها ، مع أن كونت الأراضي المنخفضة صادق مثلما فعل الآخرون.

وكان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الامبراطور ، ذلك أنه بدون مساعدته ومشورته لم نكن قادرين على القيام بهذه الرحلة ، مثلنا في ذلك مثل الذين سيقدمون بعدنا عبر هذا الطريق ، وقد منح الامبراطور الى الأمراء هبات كثيرة ، وخلع عليهم أودية الحرير حتى أرضاهم وأعطاهم الخيول والأموال التي احتاجوا اليها لأداء هذه الرحلة.

وعبرنا بعد ذلك بحر البوسفور ، وخففنا الخطى نحو مدينة نيقية ، حيث كان كل من الأمير بوهيموند ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، وكونت الأراضي المنخفضة قد شرعوا بحصارها منذ شهر أيار ، وكانت آنذاك تحت حكم الأتراك ، وهم شعب شجاع ، جاء من الشرق ، ماهر في استخدام القوس

والنشاب ، وكان هذا الشعب قد عبر الفرات قبل خمسين سنة من بلاد فارس ، واستولى على الأراضي البيزنطية حتى نيقوميديا .

وا اسفاه كم من راس مقطوعة رايناها وكم هي كثيرة عظام الهالكين التي وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيقوميديا ، فقد كان الأتراك في ذلك العام (١٠٩٦) قد أبادوا قوما الذين لم يعرفوا القوس ولم يختبروا كيفية استخدامه ، وقد هز هذا المشهد مشاعرنا ، فذرفنا الدموع الغزيرة .

حصار نيقية وسقوطها:

عندما سمع الذين كانوا يتولون حصار نيقية نبأ وصول قائدنا كونت نورماندي ، وسستيفن بلوا ، قادموا مسرورين لمقابلتنا ، ورافقونا الى موقع في جنوبي المدينة حيث أقمنا معسكرنا .

وكان التركمان قد حشدوا فيما مضى قواتهم ، وزحفوا على أمل بصد المهاجمين واستدراجهم بعيدا عن المدينة ، أو أن يدافعوا عنها بجندهم بفاعلية أعظم ، غير أن رجالنا ردوهم على أعقابهم وهزمهم بكل ضراوة ، وقتلوا أكثر من مائتين منهم ، وعندما رأى هؤلاء أن الفرنجة أشداء متمرسون في فنون القتال تراجعوا مهرولين الى داخل الأناضول يتحينون الفرصة للانقضاض ثانية .

لقد كنا آخر من وصل للمشاركة في الحصار في الاسبوع الأول من تموز (٣ - تموز ١٠٩٧) وكونت في ذلك الوقت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا ، قدر تعداده العارفون بأنه حوى ستمائة ألف رجل قادر على القتال ، كان من بينهم مائة ألف دارع يحملون أيضا الترسية ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وذلك بالإضافة الى الذين كانوا غير مسلحين أي رجال الدين والنساء والأطفال .

ثم ماذا بعد هذا؟ لو أن جميع النين غادروا ديارهم للمشاركة في هذه الحملة المقدسة احتشدوا في ذلك المكان لجاوز تعدادهم ستة ملايين محارب ، وهذا ما لاشك فيه ، غير أن بعضهم رجع من روما ، وبعضهم الآخر من أبوليا ، ثم من هنغاريا ودلماشيا ، لأنهم لم يتحملوا المشاق ، وقتل في أماكن عديدة أعداد كبيرة قدرت بالآلاف ، كما مات عدد كبير من المرضى الذين قدموا معنا ، هكذا امتلأت الطرقات والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا علنا .

ويتوجب علينا أن نبين أنه طيلة حصارنا لمدينة نيقية كانت المؤن والأغذية تصل إلينا بوساطة السفن وبرضى من الامبراطور ، ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من أكباش وأبراج خشبية ومجانيق ، وأطلقت السهام من الأقواس ، والحجارة من المجانيق ، وتحارب رجالنا ورجال العدو كرا وفرا بكل ما أوتوا من قوة ، ولقد هاجمنا المدينة بمعداتها الحربية مرارا وتكرارا لكن مناعة الأسوار وحصانيتها أحببت جهودنا ، وسقط خلال ذلك عدد كبير من الأتراك ومن رجالنا بعد أصابتهم بالسهم أو بالحجارة .

الحق أقول إن الحزن كان سيملاً قلبك ، والدموع ستنتهمر من عينيك لو أنك شاهدت الأتراك وهم يقتلون أي واحد منا لدى اقترابه من الأسوار ، إذ أنهم كانوا يرمون الخطافات الحديدية ، وينتشلون الجثة كي ينهبوها ، ولم يجروا أحداً من رجالنا - أو استطاع - انقاذ الجثة من أيديهم ، وكان الأتراك يرمون بتلك الجثث خارج الأسوار بعد سلبها وتعريتها .

وسحبنا عبر اليابسة عدة قوارب صغيرة بوساطة الثيران والحبال ، وكنا قد جلبنا هذه القوارب من بحيرة سفيتوت وأوصلناها حتى بحيرة نيقية حيث القيناها فيها واستخدمناها لحراسة مداخل المدينة بغية منع وصول المؤن والمعونات إليها .

وبعدما مضى على حصارنا للمدينة خمسة أسابيع ، القينا خلالها

الرعب في قلوب الأتراك بهجماتنا ، عقد هؤلاء مؤتمرا أرسلوا على إثره الوسطاء الى الامبراطور وسلموا اليه المدينة سرا ، بعدما كنا قد ضيقنا عليها الحصار بقوانا وببراعتنا.

ثم ادخل الأتراك الى المدينة مجموعة من التوركبلي ، بعث بهم الامبراطور الى هناك ، وتسلم هؤلاء المدينة بكل ما كان فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما حسبما أمرهم ، وبعد مصادرة ما كان فيها من اموال أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والهبات لقادتنا ، وكانت الهدايا من الذهب والفضة والثياب ، كما وأمر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها « تترتون » على الرجالة.

وفي اليوم الذي سقطت فيه نيقية او استسلمت بهذه الطريقة كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.

المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك:

بعدها حصل امرأونا على الانز بالرحيل من الامبراطور ، شرعنا في اليوم الثالث قبل مطلع شهر تموز متجهين الى داخل بلاد الأناضول ، وبعدها سرنا لمدة يومين وصلتنا اخبار تفيد ان الأتراك قد نصبوا لنا كميناً في سهل خيل اليهم اننا لا بد مجتازوه ، لهذا توقعوا ان يحاربونا هناك.

وعندما علمنا بهذا لم نجهد ولم نتدخل عنا شجاعتنا ، ولما اكتشفت طلائعنا في تلك الامسية كثيرا من الأتراك على بعد منا اعلمونا بذلك على الفور ، فشددنا الحراسة طوال الليل لحماية المعسكر من جميع الجهات ، وفي الصباح التالي الذي وافق اول تموز ، حملنا اسلحتنا وعلى صوت الأبواق عبأنا الجيش ووضعناه

في ترتيب المعركة ، وسار الأمراء والقادة على رأس الكتائب والسرايا ، وبأعلام خفاقة بدانا الزحف بكل انتظام .

وفي الساعة الثانية من النهار اقتربت طلائعهم من مقدمتنا ، وحين عرفنا ذلك ، عسكرنا على مقربة من مستنقع هناك ، وانزلنا حمولة دوابنا ومن ثم هبنا أنفسنا للقتال .

وإثر ذلك واقعنا الأتراك ، أولئك الفرس الكفرة ، الذين كان أميرهم قلع أرسلان بن سليمان يملك نيقية وأراضٍ الأناضول تحت سلطانه ، وكان الأتراك قد استجابوا لأوامر سليمان فقدموا لنجدته من مسيرة ثلاثين يوما ، وكان بصحبتة العديد من الأمراء مثل كرادجيم (قراجه؟) وأمير ياتوش (أقوش - أتسوز؟) وسواهما ، وبلغ تعدادهم ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، كلهم من حملة القوس والذشاب ، فقد كان من عاداتهم التسليح هكذا ، وكانوا جميعا يمتطون الخيول ، أما نحن فكان بيننا رجاله وكان أيضا لدينا حملة قوس وذشاب .

وكان الدوق غودفري والكونت ريموند وهيج العظيم قد تغيبوا عنا آنذاك لمدة يومين ، فقد انفصلوا عنا لسبب أجهله ، مع مجموعة كبيرة من الرجال عند مفترق أحد الطرقات ، ولهذا تحملنا أثناء القتال خسائر لا تعوض ، فهلك عدد كبير من رجالنا يوازي عدد الأتراك الذين نجوا من الموت والأسر فيما بعد ، ولأن جماعتنا الذين انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائنا ، فقد تأخروا في القدوم لنجدتنا .

وكان الأتراك في تلك الأثناء يزمجرون ويصرخون كالذئاب المفترسة ، ويرموننا بكل ضراوة وبوابل كثيف ، من السهام فوجا إثر آخر ، ولهذا أصبنا بصدمة ، وبما أننا نأجسه الموت ، وحيث أن عددا كبيرا من رجالنا أصيبوا بالجراح ، فقد ركننا إلى

الفرار ، وليس هذا بمدحش ، ذلك أن أساليب القتال هذه لم تكن معروفة لدينا .

وفي الجانب الآخر من المستنقع شقت قوة كبيرة من الأعداء طريقها بكل ضراوة حتى اقتربت من معسكرنا ، ودخل الأتراك الى خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض رجالنا وحدث هذا عندما أخذت مقدمة جيش هيوچ العظيم والكونت ريموند والدوق غودفري تصل إلى أرض الكارثة إلى حيث المؤخرة ، ولهذا عندما تراجع رجالنا إلى الخيام خيل إلى العدو والذين كانوا ينهبون هناك أننا كررنا لمهاجمتهم لذلك لانوا بالفرار ، لكن اه لو علموا الحقيقة فما خيل إليهم انه شجاعة وإقدام لم يتعد الخوف والرعب الشديدين :

ثم ماذا أقول بعد هذا ؟ كنا قد تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الأغنام ، ترتعد فرانصنا ويهدنا الرعب ، ويحيط بنا العدو من جميع الجوانب إلى حد أننا لم نقدر على التحرك بأي اتجاه ، ووضع لنا انذاك أن منازل بنا كان نتيجة اثمنا ، إذ أفسد الترف بعضنا ، في حين أفسد الجشع مع رذائل أخرى البقية ، وصدرت أصوات شديدة وانبعثت إلى السماء لامن رجالنا وأطفالنا ونساننا فحسب بل من عند الكفار المهاجمين لنا ، وانذاك فقدنا كل أمل لنا بالبقاء ، واعترفنا ساعتئذ بأثامنا امام مجلس العدالة ، واستمطرنا بكل تواضع رحمة الرب ، وكان في أوساطنا أسقف لى بوي مرشدنا ، ومعه أربعة اساقفة آخرين وكثير من الكهنة ، تدثروا جميعا بالأردية البيضاء وتوسلوا بكل خشوع إلى الرب أن يهزم عدونا ، وأن يمدنا بعونه ، ورتلوا باكين ، وبكوا مرتلين ، وهروا كثير من الناس نحو رجال الدين موقنين أن نهايتهم قد دنت وقصدتهم الاعتراف بخطاياهم .

وقاوم قادتنا : الكونت روبرت النورماندي ، وستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت الاراضي المنخفضة وبوهيموند الأتراك بكل

ما أوتوه من قوة و حاولوا مرارا مهاجمتهم غير أنهم صدوا وردهم الأتراك بكل قسوة .

هرب الأتراك وانتصار المسيحيين :

وفي الحقيقة لا يمنح الرب النصر لمجد النبلاء ، ولا البراعة المقاتلين ، لكنه يمنحه لمحبتة للذين صفت نفوسهم ، وينزله على الذين تحصنوا بالقوة الربانية وقت حاجتهم إليه ، ولذلك يبدو أنه استجاب لدعواتنا ، فبدأ يعيد إلينا قوتنا رويدا رويدا ، ويضعف قوة الأتراك ، فما أن رأينا رفاقنا في المؤخرة قادمين لنجدتنا حتى مجدنا الرب ، واستعدنا شجاعتنا وأعدنا تنظيم صفوفنا وفيالقنا واستبسلنا في التصدي للعدو ومقاومته .

واحسرتاه كم قتل الأتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تأخروا وراءنا على الطرقات ، وحلت الكوارث بين صفوفنا من الساعة الأولى للنهار حتى الساعة السادسة ، غير أننا استرددنا شجاعتنا شيئا فشيئا إثر وصول رفاقنا ودعمهم لنا ، وما أن حلت النعمة الربانية علينا وظهرت المعجزة العلوية بين صفوفنا حتى لوى الأتراك اعنتهم فجأة وولوا الأدبار .

و طاردناهم و نحن نصرخ بكل شراسة فوق الجبال و عبر الوديان ، و لم نتوقف حتى بعدما وصل بعض رجالنا إلى خيامهم ، بعض رجالنا كثيرا من جمال وخيول الأتراك بحمولاتهم واستحوزوا حتى على خيامهم التي هجروها لرعبهم ، ولاحق آخرون فلول العدو حتى حلول الظلام ، وبما أن خيولنا جاعت وتعبت فقد أتيح لنا الاحتفاظ ببعض خيولهم .

ومن آيات الرب الكبرى ومعجزاته أنه خلال اليومين التاليين أو

الثلاثة لم يتوقف الترك عن الفرار ، مع ان احدا - باستثناء الرب - لم يطاردهم اذناك ، ثم استأنفنا سفرنا بكل حيطة ، وقد اصابنا عطش شديد بعض الايام عصف بنا إلى حد ان عددا من الرجال والنساء هلكوا عطشا ، وتابع الأتراك فرارهم بلا انتظام ، وبحثوا لأنفسهم عن ملاجئ يختبئون فيها في الأناضول .

ضيق حال المسيحيين :

بعدها وصلنا إلى انطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، توجهنا إلى قونية ، وكنا في تلك الأماكن دوما بحاجة إلى الخبز والطعام ، فقد وجدنا بلاد الأناضول مع أن أراضيها ممتازة تدر الخيرات وتعطي المنتجات من كل نوع ، وجدناها مقفرة لأن الأتراك دمروها وعاثوا فيها وهجرها أهلها .

ومع هذا كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبوحة من العيش لوفرة المحاصيل التي جنيهاها من المزارع المنتشرة في أنحاء البلاد ، وقد تم ذلك بمعونة الرب الذي اشبع بخمسة أرغفة وسمكتين خمسة الاف نسمة (متى : ١٧ / ٢١ . مرقس : ٦ / ٢٨ - ٤٤ . لوقا : ٩ / ١٦ . يوحنا : ٦ / ٩ - ١٠) وبذلك قنعنا جميعا ، وأقررنا بكل غبطة أن جميع هذه المنح كانت بركة وهبة من الرب .

ولربما كنت ستضحك أو حتى تبكي رثاء لو أنك شهدت عددا كبيرا من هؤلاء الناس ، ممن لم تتأمن لهم دواب التحميل التي هلك كثير منها ، وقد حملوا حاجياتهم من ثياب واطعمة وغير ذلك مما يحتاجه الحجاج على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب ، وقد قصمت هذه الأثقال ظهور هذه البهائم الهزيلة وحطمتها ، وفي بعض الأحيان اضطر الفرسان المسلحون إلى ركوب ظهور الثيران .

ترى من الذي سمع خليطا من اللغات في جيش واحد كهذا

الجيش ؛ لأنه اجتمع فيه الفرنجة والفلمنكيون ، والفريسيون ،
والغاليون ، واللوبرغيون واللوثارنجيون والبافارزيون والألمان
والانكليز والسكوتلنديون والأوتسمانيون والطلبان والداشميون
والابوليون والاسبان ، والبريتانيون والاغريق والأرمن ، ولو أراد
بريتاني أو الماني أن يخاطبني لما أمكنتني إجابته أو فهم سؤاله ،
ومع هذا إنه على الرغم من اختلاف السنننا ، كنا أخوة في محبة
الرب ، وكنا على وفاق ووثام في الرأي ، وكان إذا ما فقد واحد منا
بعض حاجياته حفظها له من وجدها لعدة أيام وهو يسأل عن فاقدها
حتى يجده فيعيد إليه حاجته ، وفي الحقيقة كان هذا لانقاس بالذين
اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة .

أعمال الكونت بلدوين أخو غودفري وبطولاته والاستيلاء
على مدينة إديسا المعروفة باسم الرها :

لدى وصولنا إلى مدينة هرقلية رأينا مذنبا في السماء ظهر بلون
ناصع البياض على شكل سيف يشير نحو المشرق ، ولم نعرف ماذا
ينبئ هذا من حوادث المستقبل فلقد أودعنا الحاضر والمستقبل بيد
الرب .

وبعد هذا وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش ، استجمينا
فيها بهدوء لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما ابتعدنا عن مرعش مسيرة يوم ،
وأصبحنا على مسيرة ثلاثة أيام من أنطاكية سورية ، انسحبت أنا
فولتشر من الجيش وتوجهت يسارا مع الكونت بلدوين أخو الدوق
غوفري ، وكان بلدوين فارسا عظيم المقدرة ، وكان قد ترك الجيش
مع أتباعه وتوجه إلى طرطوس كليكيا واحتلها بإقدام وشجاعة
فائقة ، وانتزعها من تانكرد الذي كان قد أدخل رجاله إليها بموافقة
الأتراك ، وبعدما ترك بلدوين حراسه هناك عاد إلى الجيش
الرئيس .

وهكذا جمع بلدوين - بعدما وضع ثقته بالرب وبقوته الشخصية - عددا صغيرا من الفرسان وانطلق في رحلته باتجاه الفرات ، واستولى هناك على عدة مدن عنوة أو بالحيلة كان أهمها مدينة تل باشر ، فقد سلمها له بسلام الأرمن الذين كانوا يقطنون فيها ، ثم دانت له مدن أخرى بالطاعة .

وإثر انتشار هذه الأخبار في أرجاء البلاد أرسل أمير مدينة الرها وفدا إلى بلدوين ، والرها مدينة ذائعة الشهرة تقع في منطقة من أخصب المناطق ، وهي في الناحية السورية من بلاد الجزيرة ، وتبعد نحو عشرين ميلا عن نهر الفرات ، وقراية المائة قبل مدينة انطاكية .

وطلب الأمير من بلدوين القدوم إليه كي يصبح صديقين مثل أب وابنه ماداما أحياء ، وإذا ما حدث ومات أمير الرها يحق لبلدوين تملك المقاطعة برمتها مباشرة ميراثا مستمرا له وكأنه الابن الشرعي للأمير ، ولما لم يكن لهذا الأمير ولد ولا بنت ، ولم يكن باستطاعته حماية ولايته من الأتراك ، فإنه أثار - كاغريقي - أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته ، ذلك أنه سمع أن بلدوين وفرسانه كانوا من أشد المحاربين وأعظمهم بسالة . وما أن سمع بلدوين بهذا العرض وتأكد من صحته من الرسل القادمين إليه من الرها الذين أقسموا أمامه على صحة ما نقلوه إليه ، حتى انطلق على رأس جيشه الصغير المكون من ثمانين فارسا ، وعبر نهر الفرات ، وبعد هذا العبور أسرعنا في سفرنا ولم نتوقف طوال الليل وكان الخوف يملا صدورنا ، لمرورنا بين مختلف البلدان الشرقية المنتشرة هنا وهناك ، وعندما سمع الأتراك القاطنون في مدينة سميساط الحصينة بقدمونا ، نصبوا لنا الكمائن على الطرقات التي خيل إليهم أننا سنركبها ، غير أن أرمنيا هناك حمانا في قلعتهم في الليلة التالية ونبهنا لكي نحذر من كمائن الأعداء ، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين ، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك الذين ضايقهم تأخرنا ، فتخلوا عن كما نُنهم ورفعوا راياتهم ووقفوا أمام القلعة التي اعتصمنا فيها ، واستولوا على المواشي التي كانت ترعى في الحقول

وخرجنا لقتالهم ، لكن لقلة أعدادنا لم نستطع منازلتهم ، ولقد رمونا بالسهم ، غير أنهم لم يصيبوا احدا منا بجراح ، وخلفوا على ارض المعركة واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح ، وقد امسك الرجل الذي قتله بحصانه ، ثم انصرف الأتراك وبقينا نحن في مكاننا .

واستأنفنا في اليوم التالي رحلتنا ، ولو كنت معنا لأدهشك رؤية الأرمن كيف كانوا يخرجون بخضوع للترحيب بنا عند مرورنا أمام مدنهم وقد حملوا الصليبان والأعلام ، وقاموا بتقبيل أقدامنا وذيابنا محبة بالرب ، لأنهم سمعوا اننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت نير ظلمهم من قبل .

ووصلنا أخيرا إلى الرها حيث استقبلنا الأمير المذكور ومعه زوجته وجميع أهالي المدينة بكل ترحاب وحفاوة ونفذوا وعودهم كلها لبلدوين على الفور .

وبعد إقامتنا هناك مدة خمسة عشر يوما ، تأمر أهل المدينة بخبث لقتل أميرهم ، وذلك لأنهم كانوا يبغضونه ، واستهدفوا رفع بلدوين إلى القصر ليحكم بدلا منه البلاد ، وقدم هذا الاقتراح لبلدوين وتم تنفيذه ، و في الحقيقة أصاب الحزن بلدوين وكذلك رجاله لأنهم لم يقدروا ان يحصلوا له على الرحمة . وما أن قبل بلدوين من أهالي المدينة مركز الامارة الذي شغل الآن بمقتل الأمير بهذه الطريقة الفظيعة حتى شن حربا على الأتراك الذين كانوا في بلاده ، وقد هزمهم مرات عديدة أو قتلهم ، وفي الوقت نفسه لاقى العديد من رجالنا حتفهم أيضا على أيدي الأتراك .

ولقد كنت أنا فولتشر أوف تشارترز كاهن بلدوين هذا ، وأرغب الآن في العودة إلى سرد بقية الحكاية التي نأيت عنها ، وأعني حكاية جيش الرب .

وصول الفرنجة إلى أنطاكية ومآسي الحصار :

وصل الفرنجة إلى أنطاكية سورية في شهر تشرين الأول ، وهي مدينة كان قد بناها سلوقوس بن أنطيوخوس واتخذها عاصمة له ، وكان اسمها فيماسلف ربلاطا ، وهي تقع على الضفة الأخرى من النهر المسمى العاصم ، وصدرت الأوامر بالعسكرة أمام المدينة بينها وبين أول حجارة المعالم ، وهناك دارت معارك كثيرة فيما بعد ، ألحقت خسائر فادحة بالطرفين ، فعندما تدفق الأتراك من المدينة قتلوا عددا كبيرا من رجالنا ، إنما بعدما دارت عليهم الدوائر ودحرناهم أصيبوا بالفواجع .

وانطاكية مدينة كبيرة جدا ، وهي شديدة الحصانة منيعة الموقع ، لايمكن لعدو الاستيلاء عليها من الخارج إذا ماتوفرت فيها الأغذية والامدادات ، وإذا عقد سكانها العزم على الدفاع عنها ، وفيها كنيسة زائفة الشهرة كرسيت تمجيدا لذكرى بطرس الرسول الذي صار اسقفا فيها بعدما تسلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات ، وهناك كنيسة أخرى مستديرة الشكل ، مكرسة على مجد مريم المباركة ، وهي معمرة بطريقة تتناسب مع مقامها ، وكانت هذه الكنائس جميعها تحت سلطان الأتراك منذ امد طويل ، لكن الرب ، العالم بكل شيء صانها لنا خالصة لم تشبها شائبة حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الأيام .

ويبعد العاصي عن أنطاكية قرابة ثلاثة عشر ميلا ، وبما ان نهر العاصي يصب في تلك البقعة ، فإن المراكب المحملة بالسلع الجلوية من مختلف الأصقاع يوتى بها إلى أنطاكية نفسها بوساطة قناة مخصصة ، وهكذا تتزود المدينة بالسلع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل صنف .

وتعاهد أمراؤنا وأقسموا بعضهم لبعض بعدما راوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها ، عدم الزحزحة حتى يتاح لهم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالخديعة .

ولقد وجدوا في النهر المذكور عدة قوارب فاستولوا عليها، واتخذوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم ، ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على اجتياز النهر .

ولما رأى الأتراك هذه الحشود الهائلة من المسيحيين تحيط بهم اصابهم الهلع ، وأيقنوا أنهم لن يفلتوا منهم ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم أرسل يغي سغان صاحب انطاكية ابنة شمس الدولة الى السلطان - اي امبراطور الفرس - ينشده منه تقديم العون والاسعاف بأسرع مايمكن ، ذلك انه لم يكن لديه أمل الابعون محمد (صلى الله عليه وسلم) حاميهم ، وبادر شمس الدولة لأداء المهمة الموكلة اليه .

ودافع الذين مكثوا في المدينة عنها ، وفيما هم ينتظرون وصول النجادات التي طلبوها أخذوا يحيكون المؤامرات الخطيرة ضد الفرنجة ، ومع هذا أحبط هؤلاء حيلهم بقدر ماأوتوا من قوة ، وفي احد الأيام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك ، وهكذا فان الذين نصبوا شراكا للفرنجة وقعوا فيه ، وهنا كانت قوة الرب واضحة جلية ، ورجع جميع رجالنا سالمين باستثناء رجل واحد أصيب بجراح .

ولقد قتل الأتراك في فورة غضبهم اعدادا كبيرة من المسيحيين من اغريق وسريان وأرمن ، والقوا بما لا يحصى عده من الرؤوس من فوق الأسوار ، وقد رموها بالمجانيق على مرأى من الفرنجة ، الأمر الذي سبب لنفوس رجالنا كثيرا من الأسى ، فقد كان هؤلاء الأتراك يمقتون هؤلاء المسيحيين لأنهم خافوا من أن يساعدوا الفرنجة بطريقة ماعلى ضد هجوم تركي .

وبعدما حاصر الفرنجة المدينة لفترة طويلة من الزمن ، وبعدما عدموا الخبز مع أنهم تجولوا في الأراضِ المجاورة بحثا عن الطعام فلم يجدوا ماينهبوه أو يشتروه ، بعد هذا كله شرع الكثيرون منهم يخططون سرا للتخلي عن الحصار والفرار اما عن طريق البر أو البحر .

نعم لم يكن لديهم مايعتاشون به ، وقد اضطروا الى البحث عما يفتاتونه في أماكن قسوية ، وفعلوا ذلك والخوف يلزمهم ، لأنهم ابتعدوا أربعين أو خمسين ميلا عن موقع الحصار ، وهناك في المناطق الجبلية قتل الأتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم .

وشعرنا ان منازل من مصائب بالمسيحيين الفرنجة كان بسبب أثمهم ، وأنهم لهذا السبب أخفقوا في الاستيلاء على المدينة بعد انقضاء كل هذه المدة ، ذلك أن الجشع والترف والعجرفة والسطو قد أفسدت نفوسهم ، وتداول الفرنجة فيما بينهم حول ذلك ، وبعد مشاورات قرروا طرد النساء من المعسكر سواء أكن متزوجات أم لا ، اعتقادا منهم ان دنسهم في عبث الحياة الصاخبة قد أثار غضب الرب ، وفدش هؤلاء الذسوة عن ملجأ لأنفسهن في القرى المجاورة .

وأصاب الشقاء والبؤس الغني مثلما لحق بالفقير ، بسبب الجوع والمذابح اليومية ولو لم يحفظ الرب - وهو الراعي الصالح - قطيعه متجمعا لهرب الجميع من هناك بلا استثناء ، وبدون جدال ، وذلك على الرغم من العهود التي قطعوها على أنفسهم من أجل الاستيلاء على المدينة ، وكان هذا محصلة للشح الشديد بالأغذية ، ولهذا انطلق العديد نحو القرى المجاورة بحثا عن الطعام ، ولم يعوبوا بعد ذلك إلى المعسكر وتخلوا عن الحصار نهائيا .

ورأينا في تلك الآونة في السماء شعاعا أحمر ، كما شعرنا برجفة

كبيرة في الأرض ، مما سبب الهلع في قلوبنا ، وقد رأى الكثيرون علامات معينة على شكل صليب ، بيضاء اللون ، تسير في طريق مستقيم نحو الشرق .

فاقة المسيحيين واملاقهم وفرار كونت بلوا

بعدما خلت الأراضي حول انطاكية في عام ١٠٩٨ من الجموع الفقيرة من شعبنا ، ازداد البؤس والشعور بالأسى في نفوس الصغار والكبار وذلك بسبب الجوع الشديد ، واكل الناس مختلف أنواع النباتات التي بقيت قائمة في الحقول مع جميع أنواع الأعشاب غير المستحبة وحتى الأشواك التي لم يستطيعوا اجادة طهيها لانعدام الاحطاب لاشعال النيران ، لذا أدمت السنة اكلها ، واضطر الناس ايضا إلى اكل الخيول والحمير والجمال والكلاب وحتى القوارض ، لا بل أكثر من هذا اكل الفقراء منا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث المواشي .

وفضلا عن الجوع تحمل الناس البرد والحر وابل الأمطار في سبيل محبة الرب ، وقد تمزقت خيامهم وبلبت وتعفنت بسبب استمرار هطول الأمطار ، ولهذا لم يجد العديد من الناس لأنفسهم غطاء إلا السماء .

وكما يمتحن الذهب ثلاث مرات في النار ، ويمحص سبع مرات (مزامير ١٢/٧) ، ايضا اعتقد أن الرب امتحن الخالص ، فطهرهم بعد عذاب شديد من دنوبهم ، ومع أن خنجر الحشيشية لم يخفق في عمله المميت ، تحمل كثير من الناس عذاب الاحتضار الطويل ، وتقبلوا بسرور أسمر درجات الشهادة ، ولعلمهم استلهموا السلوان من مثل أيوب المبارك الذي طهر روحه ونقاها بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (أيوب : ١/٢) فهم عندما كانوا يحاربون الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الرب واسمه .

الرب الذي خلق كل شيء هو الذي يأمر من خلق ويرعى ويدعم كل ما يأمر به ، يحكم الرب بأمره فيصلح ما يشاء ويدمر ما يشاء ، ويخيل لي أن الكفار سيجري تدميرهم حتى يدفعوا ثمن العذاب الذي أراه الرب للمسيحيين ، فهم الذين طالما داسوا بأقدامهم الملوثة كل ما يخص الرب مع أن ذلك حصل بمشيئته وفق ما يستحقه الناس ، الحق أنه سمح بذبح المسيحيين حتى يعظم خلاصهم ، وسمح أيضا بذبح الأتراك لاحقاق اللعنة على أرواحهم ، أما الأتراك الذين كتب لهم الخلاص فإنه أرضى الرب تعميدهم من قبل كهنتنا ، « لأن الذين كتب لهم ناداهم وعظهم» (رومية : ٨ / ٣٠) .

ثم ماذا بعد ؟ لقد تخلى بعض رجالنا - كما سمعتم - عن حصار عظيم الشدة ، بعضهم فعل ذلك بسبب الفاقة وبعضهم نتيجة الجبن ، وآخرون انسحبوا خشية الموت ، وكان الفقراء قد انسحبوا أولا ثم تبعهم الأثرياء .

ثم كان أن تخلى ستيفن كونت بلوا عن متابعة الحصار ، وأبحر عائدا في دياره فرنسا ، ولقد ألم بنا الأسى جميعا لذلك ، لأنه كان رجلا أصيلا ونبيلا شجاعا شديد البأس ، وفي اليوم التالي لسفره سقطت مدينة أنطاكية للفرنجة ، ولو أنه صبر وبقي لسر سرورا عظيما مع الآخرين ، ذلك أن فعلته جلبت إليه العار والازدراء ، ومقرر أن البداية الحسنة لا تجدي المرء إذا لم تكن الخاتمة حسنة ، أما ما يتعلق بشؤون الرب فسالتم بالاختصار لئلا أنصرف عن الطريق القويم ، ففي هذا المجال علي الالتزام بالحدز حتى لا أضل فأبتعد عن الحقيقة .

لقد بدأ حصار أنطاكية كما نوهنا من قبل في شهر تشرين الأول ، واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز ، وتبادل الأتراك والفرنجة خلال ذلك الهجمات والهجمات المضادة فانتصروا وهزموا ، أما نحن فقد انتصرنا أكثر منهم ، وحدث في إحدى

المناسبات أن وقع العديد من الأتراك - أثناء فرارهم - في نهر العاصي وغرقوا بشقاء ، وعلى شاطئ هذا النهر توأقع الشعبان مرات ومرات .

وكان رجالنا قد شيدوا امام المدينة عدة قلاع ، استخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا اثناءها أن يصدوا بكل بسالة الأتراك ، وبذلك تمكنوا في كثير من الأحيان أن يدفعوا مواشيهم عن الوصول إلى المراعي ، ولم نحضر شيئاً من الأرض في المناطق المجاورة ومع هذا كثيراً ما عملوا لالحاق الضرر بنا في مناسبات مختلفة .

سقوط مدينة أنطاكية

ومهما يك من أمر ، عندما رضي الرب علينا ، باستجابته - بدون ريب - لدعوات شعبه في أن يضع حدا لشقائهم ، فبعدما ابتهلوا إليه بلا توقف وصلوا يومياً استجاب فوهبهم بمحبته استلام المدينة سرا من خلال (أرمني) من رجال الأتراك ، وهكذا رجعت المدينة إلى حكم المسيحيين ، واليك إذا تفاصيل أخبار الخيانة فأصغني إليها وإن لم تكن حقا خيانة .

لقد تجلى الرب (لأرمني) من رجال الأتراك ، كانت قد كتبت له بركة الرب ، وقال له : « قم أيها النائم ، فأنا أمرك بإعادة المدينة إلى المسيحيين » ودهش الرجل غير أنه احتفظ بالرؤيا سرا ، ثم تجلى له الرب ثانية وقال له : « أعد هذه المدينة إلى المسيحيين ، فأنا يسوع المسيح الذي أمرك بذلك » وارتبك الرجل واحتار فيما يفعل وذهب إلى مولاه صاحب أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فرد هذا عليه قائلاً : « أوتريد أيها الغبي أن تطيع شبحاً من الأشباح ؟ » فرجع الرجل والتزم بالصمت .

ومجددا تجلى له الرب وقال له : « لم تم تنفذ ما أمرتك به ؟ لا تتردد لأنني أنا الذي أمرك بهذا ، أنا رب الجميع ، ولما اختفى الشك من نفسه بدأ هذا الرجل يخطط سرا مع رجالنا ويرسم مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة .

وبعدما تم الاتفاق سلم الرجل ابنه إلى الأمير بوهيموند ليكون رهينة لديه ، لأن بوهيموند كان أول من سمع بهذه الخطة وأول من اقتنع بها ، وفي الليلة المتفق عليها مكن الرجل عشرين من رجالنا من تسلق السور بواسطة حبال دلاها لهم ، وبسائر هؤلاء على الفور ، وبدون أي تقاعس إلى فتح الباب وفي تلك الأثناء تبعهم أربعون رجلا آخرون من جنودنا بواسطة تسلق الأسوار أيضا بالحبال ، وقتلوا ستين من الأتراك الذين صدقوهم يحرسون الأبراج ، وإثر ذلك صاح الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد : « إنها إرادة الرب ، وكانت تلك الصيحة الشعار الذي كنا نطلقه حين نوشك على انجاز أي عمل مجيد .

وإثر سماع الأتراك لهذه الصيحة دب رعب هائل في نفوسهم ، وبادر الفرنجة إلى الهجوم على المدينة بدون تقاعس حيث أن ظلمة الليل أخذت مع الفجر بالتلاشي ، وعندما رأى الأتراك راية بوهيموند ترفرف في الأعالي ، والفوضى تنتشر في كل مكان وتعم ، وسمعوا أبواق بوهيموند تصدح من أعالي الأسوار ، وراوا الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيفوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية ، عندما شهدوا هذا كله أصابهم الرعب ، فأمعنوا بالفرار لا يلوون على شيء ، وتمكن بعض الهاربين من الأتراك من الوصول إلى القلعة القائمة على سفح الجبل .

وشرع العامة من رجالنا بالاستيلاء على كل ما وقعت عليه أيديهم في الطرقات والبيوت ، أما الفرسان الذين تخصصوا بفنون القتال ، فقد تابعوا مطاردة الأتراك وذبحهم ، أما يغني سغان أمير انطساكية

فقد هرب منها ، وصدفه بعض الفلاحين الأرمن ، فقطعوا رأسه واحضروه بالحال إلى الفرنجة .

العثور على الحربة المقدسة

عثر رجل بعد سقوط أنطاكية على حربة في حفرة من الأرض في كنيسة القديس بطرس ، وادعى هذا الرجل بعد اكتشافه للحربة أنها الحربة ذاتها التي أطلقها لونجينس - كما ورد في الانجيل - فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح - « ولكن واحدا من العسكر طعن جنبيه بحربة وللوقت خرج دم وماء » - (يوحنا : ١٩ / ٢٤) ، وادعى الرجل أن الرسول أندروز هو الذي أوحى له بذلك ، وبعد اكتشاف الحربة ، روى الرجل القصة لأسقف لى بوي ، وللكونت ريموند ، ولم يصدق الأسقف هذه الحكاية ، لكن الكونت أمل أن تكون صحيحة .

وإثر سماع الناس بهذا الخبر ابتهجوا كثيرا ومجدوا الرب وحمدوه ، وظلت الحربة لمدة مائة يوم موضع اجلال وتقديس ، وحملها الكونت ريموند بكل فخار وتولى حمايتها ، ثم ساورت الشكوك عدد كبير من الكهنة والعلمانيين ، وارتابوا في أن تكون هذه حقا حربة الرب المقدسة ، وأنها مجرد حربة أخرى عثر عليها ذلك الرجل البجال المخادع .

وفي الشهر الثامن بعد الاستيلاء على مدينة أنطاكية ، وبعد ثلاثة أيام من الصيام والصلوات التي أسهم فيها الجميع أشعلوا كومة كبيرة من الحطب في وسط حقل أمام مدينة عرقة ، وقام الأساقفة بتقديم الصلوات الخاصة بأعمال المحنة فوق النار ، ومر الرجل الذي عثر على الحربة - بناء على طلبه - مسرعا يركض خلال الجمر الملتهب وذلك بغية اثبات أمانته ، وبعدما مر الرجل من خلال النار ، أيقنوا أنه كان مذنباً لأن جلده احترق ، وعلموا أنه أصيب إصابة

قاتلة ، وبالفعل ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد ، فقد توفي الرجل بعد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير .

ولما كان كل انسان قد قدس هذه الحربة محبة واجلالا للرب ، فقد اصيب كل هؤلاء الذين امنوا بها بحزن عميق وتخلوا عن ايمانهم بها ، ومع ذلك فإن الكونت ريموند قد احتفظ بها بعد ذلك لفترة طويلة .

محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل انطاكية :

وصل في اليوم التالي لاحتلالنا انطاكية حسبما وصفنا ، حشد كبير جدا لا يعد ولا يحصى من الأتراك ، وضربوا حصارا حول المدينة ، ذلك أنه ما إن علم السلطان ملك بلاد الفرس ، بحصار الفرنجة لانطاكية حتى حشد على الفور جيشا عرمرما من الرجال ، وأرسله ضد الفرنجة ، وكان اسم قائد هذا الجيش كربوغا ، وأعيقت مسيرة هذا الجيش مقدار ثلاثة أسابيع أمام مدينة الرهالتي كان يملكها آنذاك بلدوين ، وبعدها أخفق في الاستيلاء عليها ، سارع بزحفه نحو انطاكية لانجاد الأمير يغي سغان .

وعندما رأى الفرنجة هذه المستجدات وهنت عزائمهم ، وزاد على هذا أن عقوبتهم أيضا قد تضاعفت بسبب خطاياهم الأخرى وأثامهم ، ذلك أن العديد منهم ما إن دخلوا المدينة حتى عاشروا النساء منتهكين بذلك ناموس الشريعة .

وتمكن نحو من ستين الفا من الأتراك من دخول المدينة عن طريق القلعة من جانب الجرف الشاهق ، وضايقوا رجالنا بحملات عنيفة متكررة عليهم ، بيد أنهم لم يمكثوا هناك طويلا فقد دب الرعب بين صفوفهم فغادروا المدينة ليحاصروها من الخارج ، وهكذا بقى

الفرنجة محاصرين خلف الأسوار في وضع قلق وحرص شديد من الصعب تصويره .

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

ولم ينس الرب في تلك الأثناء عباده ، فتجلى لكثير من الناس ، وقد تواتر نكر هذه الحقيقة وأنه طمأنهم ووعدهم بالسور بنصر كبير ، ثم تجلى الرب لرجل دين كان قد فر لخوفه من الموت ، وقال له : إلى أين ماض يا اخانا ؟ فأجابه : إنني هارب ، خشية أن ينالني سوء الطالع فأهلك .

شعر :

وهكذا هرب الكثيرون حتى لا يذوقوا طعم الموت الزؤام .
فأجاب الرب رجل الدين بقوله : « لا تهرب بل ارجع ، وقل للآخرين إنني ساكون معهم في المعركة فقد طمأنت نفسي صلوات أمي ، ولسوف أكون رحيما مع الفرنجة ، وهم قد أوشكوا على الهلاك بسبب آثامهم ، ليكن يقينهم وأملهم ثابتا ، فاسوف أكتب لهم النصر على الأتراك ، دعهم يتوبون أولا ، ولسوف ينجون لأنني أنا الذي أكلمك ، أنا الرب ، ، وعاد رجل الدين على أدرجه في الحال ، وذكر للفرنجة ما سمعه .

وسعى في هذه الأثناء عدد كبير من الفرنجة إلى الهبوط ليلا من الأسوار بواسطة الحبال ليهربوا ، فقد كانوا خائفين من الموت جوعا أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام واحد من النازلين أخوه وكان قد مات منذ أمد وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ أمكث ولا تخف ، فالرب سيكون معكم في حربكم ، وإن رفاقكم في هذه الرحلة ،

الذين تقدموكم إلى الموت ، سيقاتلون معكم ضد الأتراك ، واستببت الدهشة بالرجل لدى سماعه كلام من مات ، وتوقف عن الفرار وأخبر البقية بما حدث .

وساء وضع الفرنجة ولم يعودوا يطيقون تحمل العذاب أكثر مما فعلوا ، حيث لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك خيولهم ، وعندما طاب للرب انهاء شقاء عباده ، أوحى لهم فاتفقوا على الصيام ثلاثة ايام مع تقديم الصدقات والصلوات عليهم بهذه الكفارات والادعية ينالون عطف الرب .

الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

وبعد بعض المداولات ، اخبر الفرنجة الأتراك عن طريق بطرس الناسك أنهم إن لم يغادروا البلدان التي كان يمتلكها المسيحيون في الماضي بسلام ، فإنهم - أي الفرنجة - سيشنون عليهم هجوما في اليوم التالي ، واذا ما رأى الأتراك اللجوء إلى المبارزة بأن تقوم بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يختارون من بين الطرفين ، حتى لا تراق دماء كثيرة اذا ما نشب القتال بين جميع المحاربين ، وفي تلك الحال سيقتسم الطرف المنتصر رجاله على الطرف الآخر ، المدينة بسلام ويحكمها بدون نزاع بعد ذلك .

كان هذا ما طلبه الفرنجة ، لكن الأتراك رفضوا الاستجابة لهم ، لأنه كانت عندهم ثقة كبيرة بأعدادهم الهائلة وقوتهم ، واعتقدوا أنهم سيتغلبون علينا وسيكون بإمكانهم ابادتنا ، فقد كان عددهم يقدر بثلاثمائة ألف من فرسان ومشاة ، وكانوا يعلمون أن فرساننا قد أصابهم الوهن فعدوا ضعفاء مثلهم مثل المشاة .

ثم عاد رسولنا بطرس ، وأعطى جوابهم ، وعندما سمع الفرنجة

هذا استعدوا وقرروا تحضير أنفسهم لخوض المعركة بدون تردد واضعين كل آمالهم في الرب ، وكان عدد قادة الترك كبير ، كل واحد منهم يدعى أمير ، وكان منهم : كربوغا ، والملك رضوان والأمير سليمان مع عدد كبير آخر يفوق الحصر .

الاعداد للمعركة :

وكان امراء الفرنجة هم : هيوغ العظيم ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراض المنخفضة ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، والأمير بوهيموند ، ونبلاء آخرون أقل منهم شأنًا ، ورحمة الرب لروح أدهم أسقف لى بوي ، الذي كان هو نفسه حواليا ، دائم العطف على الناس ، يخفف من الامهم ، ويمتن قوة إيمانهم بالرب .

اه ما أروع التقوى التي تقود الى اليقظة ، ففي الليلة السالفة أصدر أدهم نفسه أمرا سمع بصوت المنادي : على كل فارس اطعام فرسه بنصيب اكبر من العلف ، مهما كان عزيزا ، كي لا يسقط الفرس في اليوم المقبل أثناء القتال منهكا من الجوع ، نعم صدر هذا الامر وتم تنفيذه ومع بوارق فجر اليوم الرابع قبل نهاية شهر تموز خرجوا جميعا من المدينة جاهزين للمعركة ، وتمت تعبئة الرجال والفرسان في كتائب وسرايا تتقدمها الرايات ، وكان معهم الكهنة يرتدون اكسية بيضاء يبكون امام جميع الناس من أجلهم ويرتلون الأناشيد للرب ، ويصدرون الأدعية من اعماق نفوسهم المؤمنة .

وراهم عند ذلك رجل تركي يدعى مجير الدين ، وكان فارسا مقداما ، فتولته دهشة عظيمة لمراهم يتقدمون وراياتهم خفاقة

مرفوعة ، وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها وهي تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام أن المعركة وشيكة الحدوث ، وكان يعرف انطاكية وقد نال خبرة بالفرنجة ، لذلك أسرع نحو كربوغا يخبره بما رأى ، وقال له : مابالك تلعب الشطرنج ، انظر إن الفرنجة قادمون ، فسأله كربوغا : أهم قادمون للقتال ؟ فأجابه مجير الدين : لست متيقنا من ذلك حتى الآن ، ولكن امهني قليلا ، وعندما رأى مجير الدين رايات قادتنا مرفوعة في الجانب الآخر تتقدم بشكل حربي وتزحف خلفها الأرتال بصفوف مترامة بنظام عسكري ، سارع بالعودة وقال لكربوغا : اعتقد أن المعركة واقعة ، ولكن تريث قليلا ، فأنا لا أميز بين الرايات التي أراها ، وبعد التدقيق والتمحيص شاهد راية أسقف لى بوي تتقدم في الفيلق الثالث .

شعر :

وبلا ابطاء قال لكربوغا :
خذ حذرك لقد حضر الفرنجة ، فاهرب الآن أو حارب بشجاعة
لأنني أرى علم البابا يتقدم .

انتفض الآن حتى لا يهزمك هؤلاء الذين اعتقدت أنك تبيدهم
وتزيلهم عن وجه الأرض .

فقال كربوغا : سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم أنني سأمنحهم
اليوم كل ماطلبوه مني بالأمس ، فقال مجير الدين : لقد فات الأوان
على هذا الكلام ، ومع هذا بعث كربوغا بطلبه ، غير أنه لم يحظ بما
ابتغى ، أما مجير الدين فسرعان ما انسحب من حضرة سيده ولكز
فرسه ، وفكر بالانسحاب ، غير أنه حرض رفاقه على أن يحاربوا
ببمسالة وأن يطلقوا سهامهم .

المعركة - انتصار المسيحيين وفرار الأتراك :

كان هيوج العظيم وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراض المنخفضة يقودون الصف الأول في الهجوم ، وتبعهم غودفري في الصف الثاني ومعه الألمان واللوثارنجيون ، واتي بعدهم أدهمر أسقف لى بوي مع رجال الكونت ريموند والتاسكونيين ، والبروفسانسيين ، فقد تخلف الكونت نفسه في المدينة لحمايتها ، ثم حشد بوهيموند الجموع المتبقية بكل مهارة في الساقا .

وعندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترقها هجوم جيش الفرنجة برمته ، أخذوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا الذشاب حسب عانتهم ، غير أن الرعب المميت النازل من السماء القي في قلوبهم ، فأمعنوا جميعا بالفرار كما لو أن العالم كله قد سقط عليهم ، وهنا طارد الفرنجة الهاربين وتعقبوهم بأسرع ما استطاعوا .

ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد وهزيلة انهكها الجوع ، فإنهم لم يتمكنوا من أسر سوى عدد صغير من الكفار ، بيد أن خيام الأتراك ظلت منصوبة على حالها في معسكرهم ، وقد وجد فيها الفرنجة ذخائر وحاجيات من مختلف الأنواع كالذهب والفضة والأردية والثياب المتنوعة والأوعية وأشياء أخرى كثيرة خلفها الأتراك أو القوها فزعا أثناء فرارهم المضطرب ، وكان هناك على سبيل المثال : خيول وبغال وحمير وعمائم فاخرة وقسم وسهام و جعب .

ومر كربوغا فارا برشاقة كالغزال ، وهو الذي طالما ذبح الفرنجة وقتلهم بالكلام والوعيد والتهديد ، ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ، وكان معه كل هؤلاء الفرسان المبرمجون ؟ لأنه تجرأ على تحدي الرب ، الرب الذي شاهد من بعد رعونة كربوغا وتبجحه فدمر قوته تدميرا وسحقها سحقا .

وهرب من الأتراك الذين امتلكوا خيولا سريعة وقوية ، أما
ماسواهم فقد تركوا للفرنجة ، وقد أسر كثير من هؤلاء ولاسيما من
الرجالة الشرقيين ، ومن جانب آخر أصيب عدد قليل من رجالنا
بجراح ، أما النساء اللواتي وجدن في خيام العدو فإن الفرنجة لم
يمسوهن بأذى ، واكتفوا بأن بقروا بطونهن بالحرا ب .

وبصوت مفعم بالبهجة أنشد الجميع لعظمة الرب ، فبرحمته
الأبوية ، أنقذنا من أشد الأعداء قسوة نحن الذين وضعنا ثقتنا به
عندما كنا في أشد محنة ، وفي أمس الحاجة ، فببطشه بعثر الأتراك
وهزمهم بعد أن كادوا يهزمون المسيحيين ، وعاد رجالنا إلى المدينة
مسرورين وقد أغنتهم الغنائم التي سلبوها من الأعداء .

شعر :

عندما سقطت مدينة أنطاكية القديمة .
كان التاريخ يقل سنتين عن الألف والمائة

بعد تجسيد مولانا الذي ولبته العذراء في شارة الجوزاء
عندما أشرقت الشمس ضعف التسعة

وفي أوائل آب توفي أدهم مر ، لتحل روحه في سلام
سرمدي - أمين . ثم عاد هيوج العظيم إلى القسطنطينية ، (١)
ومنها ذهب إلى فرنسا .

وأرسلت هذه العصابة الكريمة من القادة الرسالة التالية إلى بابا
روما بخصوص ما حدث : إلى فائق التبجيل مولانا البابا أوربان .

من بوهيموند ، وريموند صنجيل ، وغودفري دوق اللورين ،
وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، ويوستاس دي
بوليون .

تحية وبعد :

عبودية مخلصمة وخضوعا صادقاً للمسيح حسبما يتوجب على الأبناء لأبيهم الروحي . إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علماً أننا برحمة وافرة من الرب ، وبمعونته الجليلة ، استولينا على مدينة أنطاكية ، وقد انهزم الأتراك الذين لطخوا بالكراهية سيدنا يسوع وقتلوا ، وإننا كحجاج ليسوع المسيح إلى القدس قد انتقمنا لجراح الرب القدير ، وإننا بعدما حاصرنا الأتراك ، وقعنا تحت حصار أترك آخرين قدموا من خراسان والقدس ودمشق ، وأمكنة كثيرة أخرى ، وقد تم خلاصنا برحمة يسوع المسيح .

وكان بعد الاستيلاء على نيقية أن تغلبنا - كما سمعت - على حشود هائلة من الأتراك نازلناها في تموز عند دور يليوم ، وهزمتنا سليمان الجبار وانتزعنا منه كل أراضي وأملكه ، وبعد امتلاكنا لكل رومانيا (الأناضول) وإخضاعها لنا تقدمنا إلى حصار أنطاكية ، ولقد تحملنا أثناء الحصار الكثير من المصاعب خاصة بسبب هجمات الأتراك المجاورين والكفار التي كانوا يشنونها علينا مرارا وتكرارا بأعداد غفيرة ، حتى صدق القول : إننا كنا محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في أنطاكية .

وبعد الانتصار في جميع المعارك ، وبعدما حاز الدين المسيحي المجد بهذه الانجازات ، توصلت أنا بوهموند إلى اتفاق مع (أرمني) من رجال الأتراك سلم إلي المدينة ، وقبل مطلع فجر الثالث من حزيران وضعت السلالم على سور المدينة التي كانت تقاوم المسيح ، وذبحنا يحيى سغان طاغية المدينة مع عدد كبير من جنده ، واحتفظنا بزوجاتهم وأولادهم وأسرههم وذهبهم وفضتهم وكل مقتنياتهم وأملكهم .

غير أننا لم نستطع احتلال قلعة المدينة التي كان الأتراك قد حصنوها ، وعندما أتممنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي

شاهدنا أعدادا لاتحصى من الأتراك تتحرك في جميع أرجاء المنطقة ، وكنا لأيام خلت نتوقع حضورهم وتحن مسانزال خارج المدينة ، وفي اليوم الثالث لامتلاكنا المدينة ضربوا الحصار حولنا ، وبخل أكثر من مائة ألف منهم من القلعة السالفة الذكر أملين أن يندفعوا من أبوابها إلى قسم من المدينة تحتها ، كان بعضه معنا وبعضه الآخر معهم .

غير أننا تمكنا من موقع لنا على مرتفع آخر مقابل للقلعة ، من حماية الممر بين الجيشين ، وهو المؤدي إلى المدينة حتى أن الأتراك بأعدادهم الهائلة لم يستطيعوا اقتحام الممر ، وحاربنا داخل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا ، وأخيرا أرغمنا العدو على التقهقر إلى معسكره عبر بوابة القلعة المفضية إلى المدينة .

وبعدما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا إلحاق الأضرار بنا من ذلك الجانب ، أحاطوا بنا من جميع النواحي ، إلى حد أن أحدا لم يعد بإمكانه الخروج أو الدخول إلى المدينة ، وقد ثبط ذلك من عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا ، حتى أن العديد منا ، وقد أهلكنا الجوع مع المحن الأخرى ، ذبحوا خيولهم وحميرهم التي كانت تموت من الجوع والتهموها .

وفي تلك الأثناء ، وبإطالة رفق ورحمة من الرب القدير ، وبعون منه ، عثرنا على الحربة المقدسة التي طعن بها لونجنوس جنب مخلصنا ، وقد تجلى القديس أندروز ثلاث مرات لواحد من عبيد الرب وأراه المكان الذي رقدت فيه الحربة المقدسة ، في كنيسة المبارك بطرس ، أمير الرسل ، وقد استمددنا الطمانينة والقوة من هذا الاكتشاف ومن غيره من الإحياءات ، فبعد أن استولت علينا الكآبة واستبد بنا الوجع ، أصبح الواحد منا يحث زميله بكل شجاعة وتحفز على القتال .

وبعدما تحملنا الحصار لمدة ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعترفنا

بذنوبنا وأوكلنا نفوسنا للرب ثم انطلقنا من أبواب المدينة في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٨ حزيران ١٠٩٨) في تشكيل قتالي ، وكان عدنا قليلا جدا إلى حد أن العدو لم يظن أبدا أننا سنحاربه بل سنهرب .

وعندما تمت جميع هذه الاستعدادات ، واصطف رجالتنا وفرساننا في تشكيلة المعركة بكل نظام ، تقدمنا بكل بسالة نحو قلب قوة الأعداء وأجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ، غير أنهم كعابثهم تشتتوا في جميع الاتجاهات ، وأرادوا تطويقنا باحتلالهم التلال والمنافذ حسب طاقتهم ، وأملوا بذبحنا بهذه الطريقة ، ولكن وكنا قد خبرنا حيلهم والاعيبهم هذه في معارك سالفة ، استطعنا ونحن الأقل عددا أن نحبط خططهم ، وذلك بفضل الرب ورحمته ، وأرغمناهم على التجمع ، وبيد الرب اليمنى تقاتل معنا ، أجبرنا الأتراك بعد تجمعهم على الفرار ومن ثم التخلي عن معسكراتهم وكل ماكانت تحويه .

وطاردنا الأتراك ، بعدما هزمناهم ، طوال اليوم وقتلنا الأفا مؤلفة منهم ، ثم عدنا إلى المدينة سعداء مسرورين ، وإثر هذا سلم ابن مروان القلعة السالفة الذكر إلى بوهيموند ومعها ألف رجل ، وقد تنازل عن هؤلاء الرجال إلى بوهيموند راضيا ، فاعتنقوا الديانة المسيحية ، وهكذا خلص مولانا يسوع المسيح أنطاكية وسلمها إلى ديانة روما .

وبما أن الأحزان غالبا ما ترافق الأفراح ، فقد توفي أسقف لي بوي ، الذي كنتم قد بعثتم به إلينا وكيلا ، وحدثت وفاته في أول آب ، وجاء ذلك بعد المعركة التي شغل فيها دورا مبرزا وبعدها خضعت المدينة لنا .

ولهذا نسألك الآن ونحن أولادك الذين فجعوا بفقدان أبيهم الذي أوكلت بنا إليه ، ولما كنت وأنت والدنا الروحي ، قد افتتحت بنفسك

هذا الحج ، وجعلتنا بعظاتك نترك بلادنا وكل ما فيها ، وبما أنك قد
حرضتنا على السير على طريق المسيح بحمل الصليب وحثتنا دوما
على تمجيد اسم المسيح حسبما كنت تبشر ، فإننا نتوسل إليك أن
تقدم إلينا ، وأن تحرض كل من يستطيع أن يقدم معكم إلينا ، فهنا
مذشأ المسيحيين (أعمال الرسل : ١١ / ٢٦) وبعدهما جلس
بطرس المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم ، أصبح
الذين كانوا يدعون في الماضي (أعمال الرسل : - ١١ / ٢ - ٧)
جليلين يدعون الآن النصارى ، فهل في هذه الدنيا ما هو أنسب من
أن تقدم أنت ، وانت الأب لهذه الكنيسة و الرأس ، إلى هذه المدينة
الرئيسية ، حاضرة الاسم المسيحي ، و تخدم هذه الحرب التي هي
مشروعك بنفسك .

لقد أخضعنا الأتراك و الكفار ، و اما الهرطقة من الأغريق و
الأرمن و السريان و أليعاقبة ، فلم نتمكن من إخضاعهم ، لهذا
نعاود السؤال في أن تقدم أنت يا أبانا العزيز كأب و رأس الى موطن
أسلافك ، و أن تجلس أنت ، و أنت خليفة القديس بطرس ، على
عرشه ، و أن تستخدمنا كأبنائك المطيعين في أداء المهام التي
تراها ، و أن تمحق بسلطانك و تدمر بقوتنا جميع الهرطقات بكافة
أنواعها ، و هكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي أخذناها على
عاتقنا بعد أن ناديت بها ، و تفتح لنا أبواب القدس ، و القدس
الأخرى ، و تحرر كنيسة قيامة الرب ، و تمجد اسم المسيحيين فوق
جميع الأسماء ، لأنك إن حضرت معنا و أتممنا الحجج الذي افتتحت
فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة .

لعل الرب الأزلي الوجود ، الذي سيحكم في الديمومة يلمك أن تفعل
ذلك : أمين

الحملة على مدن أخرى - حصار عرقة - رحلة الفرنجة إلى القدس ووصولهم إليها :

بعدما هد تعب الأيام الطوال رجالنا و خيولنا ، استجمعوا و استراحوا أربعة أشهر في أحواز أنطاكية حتى استردوا عافيتهم ، و بعد شيء من المداورات زحف جزء من الجيش إلى داخل بلاد سورية و ذلك بقصد تأجيل الزحف على القدس ، و قاد هذا الجزء بوهيموند و الكونت ريموند ، و بقي بقية الأمراء على مقربة من أنطاكية .

واستولى هذان القائدان مع رجالهما على مبينتي البارة و معرة النعمان بعدما اظهروا شجاعة هائلة في القتال ، و قد استولوا على المدينة الأولى بسرعة فائقة ، و ابادوا سكانها عن بكرة أبيهم ، و استولوا على كل ما وجدوه فيها ، ثم اندفعوا نحو المدينة الثانية ، و حاصروها لمدة عشرين يوما عانى أثناءها رجالنا من الجوع الشديد ، و يقشعر بدني و أنا أنكر أن عددا كبيرا من رجالنا ، و قد هدم الجوع و عذبهم إلى حد الجنون ، قطعوا لحم العجز من جثث المسلمين المطروحة و طبخوه واكلوه ، لابل التهموا اللحم بوحشية قبل ان يتم طهيه ، وهكذا فإن الضرر اصاب الذين قاموا بأعمال الحصار اكثر من المحاصرين .

و في تلك الاثناء أتم الفرنجة صنع الآلات الحربية على حسب الاستطاعة ، و دفعوها إلى محاذاة الأسوار ، و ببركة من الرب و معونة عبروا فوق هذه الآلات في هجوم بالغ الجرأة ، و في اليوم التالي ابادوا قتلا جميع المسلمين من اعلاهم الى ادناهم و استولوا على ممتلكاتهم أجمع .

وبعدما دمرت المعرة على هذه الصورة رجع بنوهيموند إلى أنطاكية ، حيث طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد خلفهم فيها لحماية قطاعه منها ، وامتلك إثر هذا بوهيموند أنطاكية وجممل

المنطقة المحيطة بها ، بحجة أن المدينة تم الاستيلاء عليها بفضل مفاوضاته وحيلته ، ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند إليه الكونت تانكرد واستأنفا الرحلة نحو القدس ، وإثر هذا انضم روبرت كونت نورماندي إلى هذه القوات ، وذلك في اليوم الذي أعقب رحيلهم من معرة النعمان

وفي عام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا المسيح زحفت هذه القوات متقدمة نحو مدينة عرقة المنيعه والواقعة على سفح جبل لبنان ، وقد قرأنا أن مؤسسها كان أراكبوس بن كنعان وحفيد نوح ، وبما أن الاستيلاء عليها كان صعبا جدا ، فقد القينا عليها الحصار لمدة خمسة أسابيع دون أن ننجز شيئا ملحوظا .

وسار الدوق غودفري وروبرت كونت الأراض المنخفضة خلف جيشنا ولم يكونا بعيدا جدا عنه ، فقد حاصرا مدينة جبلة الحصينة ، وأذالك تسلمنا رسالة من الجيش بطلب العون في حصار عرقة ، فتخلينا عن جبلة فورا ، وخفا لنجدة الجيش ، غير أنه بعدما حوصرت عرقة لم تقع معركة كبيرة كما كان متوقعا .

وأخذ الفرنجة بعد هذا في التداول فيما بينهم ، فارتأوا أن ضررا كبيرا لا يرتق سيحقيق بهم جميعا إن هم أطالوا فترة مكوثهم حيث هم واخفقوا في الاستيلاء على عرقة ، وأخيرا استقر رأيهم على رفع الحصار عن عرقة ومتابعة الزحف ، ومع أن طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية إلا أنه كان ما يزال هناك متسع من الوقت لوصولهم إلى القدس أيام الحصاد ، ولو أنهم شرعوا الآن بالزحف ولم يتماهلوا سيكون بإمكانهم أن يقاتلوا على الحصاد في كل مكان ، وعلى الأغذية التي يزودهم الرب بها ، فبقيادته يمكنهم الوصول إلى غايتهم المنشودة ، وتبني هذا الرأي واتخذ قرارا بذلك

وبعدما قوضوا المعسكر شرعوا بالرحيل ، فمروا أولا بمدينة

طرابلس ، ثم واصلوا زحفهم حتى جبيل ، فكانوا أمام قلعتها في شهر نيسان ، وبدأوا يقتاتون على الحصاد ، وقد تابعوا زحفهم فمروا على مقربة من مدينة بيروت ، حتى وصلوا إلى مدينة اسمها بلغتنا صيدا ، وهي في أرض الفينيقيين ، كان قد بناها صيدون بن كنعان الذي جاء من سلالة الصيداويون ، ومن صيدا هبط رجالنا إلى الصرْفند ثم إلى صور ، وهي مدينة رائعة حقا ، ومنها إلى اوبليا التي قرانا عنها وعن هاتين المدينتين قال المبشر « في نواحي صور وصيدا » (متى ١٥ / ١٢) ويدعو سكان المنطقة هذه احداها باسم ساجيتا والثانية صور وفي العبرانية صور .

ثم وصلوا إلى قلعة تدعى الزيف (الزيب ١٤ كم شمالي عكا) تبعد ستة أميال عن بطولومي (عكا) ثم مروا من أمام بطولومي التي تعرف باسم عكا (عكو) من قبل ويخطىء بعضهم فيسميها عكرون ، ولكن هذه مدينة فلسطينية على مقربة من عسقلان بين بيننا وأشدود ، وفي حقيقة الأمر يحد عكا من الجنوب جبل الكرمل ، وبعد تجاوزهم مر رجالنا ببلدة اسمها حيفا وقعت إلى يمينهم ، ثم اقتربوا من دورا ، وبعدها من قيسارية فلسطين التي كانت تدعى من قبل باسم « برج ستراتون » ففيها مات هيرود أغريبا - حفيد هيرود الذي ولد المسيح في أيامه - ميتة بائسة حيث أكلته الديدان (أعمال الرسل : ١٢ - ٢) .

وزحف الفرنجة بعد هذا والبحر ومدينة أرسوف إلى يمينهم ، ودخلوا إلى مدينة الرملة وكان سكانها من المسلمين قد هجروها قبل ذلك بيوم ، وعثر فيها الفرنجة على كميات من القمح حملوها على ظهور دوابهم ونقلوها إلى القدس .

وبعد توقف لمدة أربعة أيام اختاروا خلالها أسقفا لكنيسة القديس جرجس ، وعينوا حامية للدفاع عن البلدة استأنف الفرنجة زحفهم نحو القدس ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى عمواس قرب مودين مدينة المكابيين

وفي اليوم التالي امتطى مائة من أفضل الفرسان خيولهم ، ومروا قبيل الفجر على مقربة من القدس ، ثم ساروا مسرعين إلى بيت لحم ، وكان بينهم تانكرد وبلدوين ، وعندما اكتشف النصارى من أبناء المنطقة من الأغريق والسريان أن الفرنجة قد وصلوا شعروا بالسعادة والسرور مع أنهم في بادئ الأمر لم يعرفوا من كان هؤلاء فقد خيل إليهم أولا أنهم ترك أو عرب ، لكن عندما رأوهم عن قرب ، وتيقنوا أنهم فرنجة طاروا فرحا ، وحملوا على الفور صلبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع ، بكوا خشية لأن عددا بهذه القلة من الناس يمكن بسهولة القضاء عليه على أيدي الجموع الغفيرة من الكفار الذين كانوا قد عرفوا بوجودهم في المنطقة ، وأنشدوا لأنهم رحبوا بقدوم الذين لطالما تطلعوا إلى حضورهم لأنهم شعروا أنهم سيعيدون إلى الديانة المسيحية الاعتبار التي هي جديرة به بعدما طال انتهاك الكفار لها .

وبعدما ابتهلوا بخشوع للرب في كنيسة مريم المباركة وزاروا مهد تجسيد المسيح ، وأعطوا قبلة السلام للسريان ، سارعوا عائدين نحو القدس ، المدينة المقدسة .

انظر لقد ظهرت بقية الجيش وهي تقترب من المدينة ، وكانوا قد مروا بالجيب (جبعون) وهي على يسارهم ، وهي تبعد خمسين استادا (١٠ كم) عن القدس ، وفي الجيب أعطى يشوع أوامره للشمس والقمر (يشوع : ١٢/١٠ - ١٣) وعندما رفع رجال الطليعة أعلامهم وراياتهم هاجمهم سكان المدينة بالحال بيد أن هؤلاء الذين أسرعوا بالخروج من المدينة ردوا على أعقابهم إليها بسرعة أكبر .

شعر :

كان حزيان مشعا بحرارة الشمس السابعة عندمالقى الفرنجة الحصار على القدس .

موقع القدس :

تقوم القدس في منطقة جبلية جرداء خالية من الأشجار والينابيع والجدول باستثناء عين سلوان ، التي تبعد مقدار غلوة عن المدينة والتي يتوفر فيها الماء حيناً ويشح حيناً آخر بسبب قلة المجاري ، وتنبع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون .

ويطفو هذا الجدول بالعادة ويفيض في الشتاء من قلب وادي بهوشافاط .

وتحتوي الأحواض والصهاريج الكثيرة داخل المدينة على كميات كافية من المياه ، ذلك انها تمتلأ عادة بأمطار الشتاء ، كما وكان هناك أحواض أخرى خارج المدينة لسقاية الناس والحيوانات

ومن المسلم به أن القدس مدينة منبسطة انبساطا متوائما ، وهي ليست بالصغيرة أو الكبيرة ، عرضها من السور إلى السور مقدار أربع غلوات سهم ، ويقع في غربيها برج داود الذي تحفه الأسوار من الجانبين ، وفي الجنوب منها يقع جبل صهيون وذلك على بعد أقل من غلوة سهم ، ويقع في شرقيها جبل الزيتون وذلك على قرابة ألف خطوة خارج المدينة ، ولقد بني برج داود هذا من حجر صلد ، وفي نصفه العلوي قوالب ضخمة مربعة مختومة بالرصاص المصهور ، ويمكن لخمسة عشر أو عشرين من الرجال الدفاع عن هذا البرج ضد هجمات أي عدو إذا ما توفر لهم ما يكفي من غذاء .

ويقع في وسط المدينة نفسها هيكل الرب ، وهو مستدير الشكل ، وقد أقيم حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله الرائع ، ومع أنه لا تصح مقارنة الهيكل الحالي بالقديم ، غير أن منظره بهي رائع يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار .

وكنيسة القيامة أيضا مستديرة الشكل ، تركت نروتها مفتوحة لتسمح للضوء بالدخول من كوة دائمة أجاد في بنائها بناء ماهر ، وليس لدي المقدرة ، كما لا أجرؤ ، ولا أعرف كيف أعدد ما فيها من ذخائر فضلا عما حوته في الماضي ، أقول هذا حتى لا أخدع أو أضلل الذين يقرأون أو يسمعون عن هذه المسألة .

وبعدما دخلنا الهيكل ، ولدة خمسة عشر عاما إثر ذاك ، قامت هناك صخرة في وسطه ، قيل إن تابوت العهد ومعه السكينة وصحف موسى قد حفظت في داخلها ، وأن يوشع ملك يهوذا قد أمر بوضعها هناك قائلا « لن تتمكن من نقلها من هذا المكان » ، ذلك أنه تنبأ بحادثة السبي المستقبلية .

غير أن هذا يتعارض مع ما نقرأه من وصف في كتاب المكابيين الثاني انه قد أخفاها في بلاد عربية بنفسه قائلا : إنها لن تكتشف حتى يجتمع خلق كثير ، وكان أرميا معاصرا ليوشع غير أن الملك يوشع مات قبل أرميا .

وروي أن ملاك الرب وقف أمام الصخرة المذكورة (صموئيل الثاني : ٢٤ / ٨ - ٢٥) وأهلك الناس بسبب ذنب داود في أحصائهم مما أغضب الرب (صموئيل الثاني : ١٢٤ / ٢ ، ١٥ - ١٧) ولما كانت هذه الصخرة قد شوهدت الهيكل فقد تمت تغطيتها بتبليطها بالرخام ، وقد وضع الآن فوقها مذبح ، وعليه أوقف الكهنة جوقة المرتلين ، وكان المسلمون يكتنون فائق الاحترام لمعبد الله هذا ، وقد فضلوا أداء صلواتهم فيه على أي مكان آخر ، مع أن صلواتهم ذهبت سدى لأنها قدمت لوثن نصب اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمحوا للنصارى بدخول الهيكل .

وهناك معبد آخر (المسجد الأقصى) رائع البنيان ، وفخم الشكل ، يدعى هيكل سليمان مع أنه ليس الهيكل الذي شيده

سليمان ، ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد ، أن نحافظ عليه في الحالة ذاتها التي وجدناه عليها ، ولذلك تلف جزء كبير منه .

وكان هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ ويجرفها ، وكان الامبراطور اليوس هادريان قد زين هذه المدينة وزادها روعة وبهاء ، وجمل شوارعها وميادينها بالأرصفة ، وقد سميت القدس نسبة إليه « ايليا » ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة عظم شأن القدس واشتهر صيتها .

حصار مدينة القدس :

بعدما رأى الفرنجة القدس ، أدركوا صعوبة احتلالها ، لذلك أمر قادتنا بصنع أبراج خشبية عالية ، وقد أملوا أن يدخلوا إلى القدس - بعون الرب - بنقل هذه الأبراج إلى محاذاة الأسوار ونصبها هناك والتسلق عليها إلى أعالي السور بهمة ونشاط وتم بناء الأبراج ، وأصدر الأمراء الأوامر بالهجوم في اليوم السابع لتاريخ وصولهم ، وبعدما صدحت الأبواق في الصباح هاجم رجالنا المدينة من جميع الجوانب بعزيمة جبارة ، وبعدما ثابروا على الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ، ولم يتمكنوا من دخول المدينة . أسطت الأبراج لقلتها توقفوا عن متابعة القتال وعادوا على مضمر

وبعد التداول حول الأمر أمر القادة المهندسين ببناء آلات أخرى للقتال ، أملين أن تحقق لهم - بعون الرب - مبتغاهم إذا ماتم الصاقها بالأسوار ، وقد تم تنفيذ ذلك .

ولم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم ، وإنما شقوا وعانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة وخلوها من الجداول وشح المياه فيها ،

لذلك نقلوا المياه بكل مشقة من المناطق المجاورة على مسافة أربعة أميال أو خمسة حسبما تيسرت الأمور .

وبعدما تم اعداد الآلات من مجانيق واكباش وابراج ، بدأ رجالنا بالاستعداد للهجوم على المدينة مرة ثانية ، وكان من جملة ما أبدعوه لخدمة أغراضهم ، برجا من أخشاب قصيرة حيث لم تتوفر لهم أخشاب طويلة في تلك الاحواز ، ونقلوا اجزاء البرج إثر اصدار الأوامر ليلا ، ثم ركبوه في مواجهة المدينة في الصباح التالي ، ووضعوا معه الأكباش والمجانيق التي أعدوها ، وبعدما حضره وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته من النيران ، دفعوه رويدا رويدا إلى محاذاة الأسوار ، وبإشارة صدحت بها الأبواق ، تسلق عدد صغير من خيرة المقاتلين وأشدهم شكيمة البرج ، غير أن المسلمين كانوا قد أقاموا وسائل للدفاع ضدهم ، وأطلقوا من المجانيق بقذائف ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم ، ووقعت هذه القذائف على البرج وعلى من فيه ، ولهذا هلك العديد من الطرفين في القتال .

وشن ريموند ورجاله من موقعهم على جبل صهيون هجوما عنيفا مستخدمين الاتهم الحربية ، ومن الطرف الآخر شن رجال الدوق غودفري وروبرت كونت نورماني ، وروبت كونت الاراضي المنخفضة أعنف هجوم على السور وأقساه ، لكن انقضى اليوم دون المزيد من المحصلات .

وتابعوا في اليوم التالي القتال على زعيق الأبواق المهمة ذاتها بعزيمة أقوى وهمة أشد ، ولذلك فتحوا ثغرة في السور في مكان واحد بعد دكة بالاكباش ، وكان المسلمون قد نصبوا عمودين من الخشب أمام فتحة وجدت في أعلى السور ، وقد ربطوهما بالحبال لتكون بمثابة ستارة تحميهم من الحجارة التي كان يقذفها المهاجمون ، ولم يخيل إليهم أبدا أن ما أقاموه لخدمة أغراضهم سينقلب ضرا فيما بعد وذلك بانن من القدرة الربانية ، حيث أنه عندما دفع الفرنجة

البرج المذكور إلى ملاصقة السور ، استخدموا سيوفهم القصيرة لقطع الحبال التي علق بها العمودان ، وجعلوا من هذين العمودين جسرا مدوه ببراعة من البرج إلى أعلى السور .

وفي تلك الاثناء ، كان رجالنا يقذفون بالمقنوفات المشتعلة على السور ، فتعلقت النيران في أحد أبراج السور الحجرية واتهمت كميات من الحطب والأخشاب كانت حول البرج ، وتصاعد الدخان واشتدت الحرائق فلم يستطع أحد من الحراس الذين كانوا هناك البقاء أمام النيران طويلا .

وسرعان ما دخل الفرنجة المدينة بكل روعة في ظهر ذلك اليوم الجليل الذي فدى فيه يسوع المسيح العالم بأسره وخلصه على الصليب ، وخلال زعيق الأبواق والضجيج والجلبة الشديدة ، شددوا هجومهم واندفعوا ببسالة وهم يصرخون « ساعدنا يا رب » ، وبادروا إلى رفع راية لهم على ذروة الأسوار ، فدب الرعب القاتل في قلوب الكفار ، واستبدلوا شجاعتهم السالفة بالخوف والفرار في أزقة المدينة وطرقاتها الضيقة ، وكانوا كلما أمعنوا بالفرار كلما اشتدت أعمال مطاردتهم ومحققهم .

وللهولة الأولى لم يعرف الكونت ريموند ورجاله ، الذين كانوا يضيقون الخصار ويشددون الهجوم من ناحية أخرى من المدينة ، كنه ما يجري ، غير أنهم عندما شهدوا المسلمين وهم يقفزون من أسوار المدينة ، وعندما أدركوا ذلك اندفعوا وهم في ذروة الابتهاج فدخلوا إلى المدينة بأسرع ما أمكنهم ، وانضموا إلى رفاقهم يطاردون الأعداء الأشرار ويذبحونهم بدون توقف . وفر بعض العرب والسودان إلى برج داود ، واندحش آخرون في هيكل سليمان ومعبد الرب ، وفي فناء هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على المسلمين ، الذين لم يكن لهم من سيوفنا مفر .

أما المسلمون الذين صعدوا إلى سقف وقبة هيكل

سليمان (المسجد الأقصى) فقد أطلق عليهم الذنشاب ، فخروا صرعى وتساقطوا على رؤوسهم ، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل ، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ، ثم ماذا أقول ؟ أقول : لم يبق منهم أحد ، ولم يرحموا طفلا ولا امرأة .

الأسلاب التي حصل عليها النصارى

كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة الدرق ، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين – بعدما اكتشفوا الاعييبهم – ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ، وللغاية نفسها ، جمع رجالنا بعد بضعة أيام كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا حتى يسهل عليهم الحصول على الذهب .

ثم اندفع تانكرد نحو هيكل الرب فجرده من كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت فيه ، غير أنه أعادها أو وضع ما يساويها في ذلك المكان المقدس ، ثم إن العبادات لم تعد تعقد هناك منذ ذلك الحين ، وكان المسلمون قد مارسوا فيه عباداتهم الوثنية بشعائر خداعة ، وكانوا أيضا لا يسمحون للنصارى بالدخول إليه .

شعر :

وبسيوف مشهورة سعى رجالنا في المدينة
لا يبقون على أحد حتى الذين يستجدون الرحمة
وتساقط الجميع مثلما يتساقط التفاح المتعفن
من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

مكوث النصارى في القدس :

وبعد هذه المنبحة الهائلة ، دخلوا إلى بيوت الأهلين فتملكوا كل ما وجدوه فيها ، وتفاهموا على ترتيب خصاص أن أول من يدخل إلى واحد من البيوت سواء أكان بيت موثر أو بيت فقير فلن يعترض عليه أحد من الفرنجة ، ويحق له سكنى ذلك البيت وتملكه حتى وإن كان قصرا ، والاستحواذ على كل ما فيه والتصرف به كما لو كان بيته حقا ، وهكذا اتخذوا قرارات التملك ، وبهذه الوسطة غدا العديد من الفقراء أثرياء .

ثم توجه رجال الدين والعامّة نحو كنيسة القيامة كذلك قصدوا هيكل الرب المجيد ، وساروا في موكب وانشدوا ترتيلة جديدة بصوت مقعم بالبهجة ، وقدموا الصدقات والابتهالات الخاشعة تملأ صدورهم ، ثم زاروا الأماكن المقدسة والغبطة تهزهم كما لو أنهم كانوا يودون لو فعلوا هذا منذ زمن بعيد .

ياله من يوم لطالما تحرقنا شوقا إليه : يا وقتا هو أخرى الاوقات بالذكرى ، ويا انجازا فوق كل انجاز ، لقد تمنينا هذا اليوم ، فقد كانت تعتمل الرغبة الجامحة في نفوس جميع المؤمنين بالديانة الكاثوليكية ، بأن يعاد هذا المكان إلى جلاله السرمدي ، لأنه المكان الذي اختاره خالق المخلوقات جميعا ، الرب الذي تجسد انسانا رحمة من رحماته للانسان ، و أضفى بتسجيده وموته وصعوده عليه منحة الخلاص ، أن يعاد هذا المكان على أيدي الذين آمنوا به ووثقوا ، فلقد تمنوا تطهير هذا المكان من الوباء بعدما دنسه سكانه بخرافات الوثنيين.

حقا إنه زمان جدير بالذكرى ، وذلك لأنه بالفعل تستعاد في هذا المكان نكرى كل ما أنجز أو علم على الأرض ربنا الاله يسوع المسيح وهو كرجل بين الرجال ، وتتجدد في مخيلة المؤمنين الصادقين

جميعا ، وسيخلد هذا الانجاز الذي اختار الرب إتمامه على أيدي شعبه وأولاده وأسرتة الاحياء ، الذين انتقاهم لاداء هذه المهمة ، وستجري نكراه على السنة جميع الامم إلى ابد الأبدين .

تنصيب ملك في المدينة واختيار بطيريك واكتشاف صليب الصليبوت:

في السنة الف ومائة ينقصها واحد.
من المولد العنزي للرب المجيد
بعدهما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
استولى الفرنجة بعزيمتهم على مدينة القدس
وسرعان ما اتخذوا غودفري اميرا على بلدان ابانهم

وأجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على انتخاب غودفري اميرا للدولة ليحميهم ويحكمهم وقد أنتخبوه لأخلاقه النبيلة ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لطلعته البهية وتسامته.

ثم اودعوا القوانين في كنيسة القيامة وفي هيكل الرب لخدمته ، وقرروا في ذلك الوقت أن لا يعينوا بطيريكاً وحتى يستمزجوا رأي البابا في روما عن يرغب في تعيينه في مركز البطريركية.

والتمس في تلك الاثناء بعض الأتراك والعرب وجوالي خمسمائة من السودان الذين كانوا قد اعتصموا في برج داود ، من الكونت ريموند الذي استقر على مقربة من البرج ، أن يأن لهم بالنجاة بأرواحهم إذا ما تخلوا عن أموالهم وتركوها هناك ، فأنن لهم فانسحبوا الى عسقلان.

وبرضى من الرب تم في تلك الأونة العثوز على قطعة صغيرة من

صليب الصليبوت وكان قد أخفاها من زمن قديم بعض الرجال الصالحين في مكان سري ، واكتشفها الآن بإرادة الرب رجل سرياني كان قد أخفاها وحفظها بمعرفة من والده ، وحمل الجميع هذه القطعة ، وكانت على شكل صليب غطي جزء منه بالذهب والفضة ، الى كنيسة القيامة و منها الى الهيكل ، مرددين أناشيد النصر ، ومقدمين الحمد للرب الذي حفظ هذا الاثر الثمين عبر العصور لنا وله.

وصول الكفار وفرارهم:

بعدها سمع ملك باب اليون (القاهرة) وأمير قواته الأفضل بدخول الفرنجة الى البلاد للسيطرة على اراضي المملكة المصرية ، أصدر أوامره بحشد جموع العرب والعرب والسودان ، وبادر بالزحف للتصدي لهم وقتالهم ، وإثر وصول الأخبار الى الأفضل ، بوساطة الرسل ، التي تحدثت عن سقوط القدس بتلك الوحشية غضب كثيرا ، وسارع بالسير لقتال الفرنجة و حصارهم داخل القدس.

لما بلغت هذه الأخبار الى الفرنجة اعتمدوا خطة على درجة عالية من الجراءة ، بأن زحفوا بقواتهم نحو عسقلان لحرب هؤلاء الطفاة ، وحملوا معه خشبة صليب الصليبوت ، وفيما كان الفرنجة في أحد الأيام يستطلعون المنطقة حول عسقلان قبيل القتال ، عثروا على مغانم لا عد لها ولا حصر من الثيران والماشية والماعز ، وبعدها جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيمنا آخر النهار ، أصدر قادتنا أمرا ملزما في أن لا يقود أحد رجالنا الغنائم معه في اليوم المقبل ، حتى لا تعيق حركة الجيش وتحد من حريته في القتال.

وفي اليوم التالي عرف الفرنجة من رجال استطلاعهم أن الكفار

قد أخذوا بالزحف فقاموا ، بضبط جوانبهم ونظموا صفوفهم وارتالهم على الوجه الأفضل للمعركة ، ثم زحفوا نحو العدو بكل شجاعة وأعلامهم مرفوعة ، ولو كنت حاضرا لشهدت الحيوانات التي سلف ذكرها وهي تسير على يمين ويسار الحشد كما لو أنها كانت تطيع الأوامر ، مع أنه لم يكن يقودها أحد ، وعندما رأى الكفار كثافة حشدنا عن بعد ظنوه جيش الفرنجة الهائل ، ومع هذا تقدم الكفار واقتربوا من حشدنا بجموع لا تعد ولا تحصى ، وكانوا أشبه بوعل مندفع ليطعن بقرونه ، وبعثوا بكتيبتين من العرب لحصار ساقتنا ، مما دفع الدوق غودفري الى العودة الى الورااء برفقة كوكبه من الفرسان الدارعين ، فأخذ الساقية ، وإثر هذا تقدم القادة الآخرون وكان بعضهم با لصف الأول وبعضهم الآخر بالصف الثاني .

وعندما دنا الجمعان من بعضهما بحيث لم يبق بينهما سوى قرابة رمية حجر أو أقل ، شرع رجالنا برمي الذشاب على الأعداء الذين امتدت صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن استبدلوا الذشاب بالحرااب ، وذلك عندما اندفع فرساننا - كما لو كانوا على اتفاق مسبق - وشنوا هجوما مدمرا ، وانقلبت أثناء القتال خيول الأعداء البطيئة على فرسانهم وطرحتهم أرضا ، وفي ساعة أو أقل فارقت أجساد كثيرة الحياة وتغيرت ألوانها وعلاها الشحوب .

وأمن الأعداء بالفرار ، وفي تلك الأثناء تسلق بعضهم أعالي بعض الأشجار ، غير أنهم تلقوا وابلا من الذشاب فسقطوا الى لقاء حتفهم بتعاسة ، وهلك المسلمون أثناء القتال العنيف في كل مكان ، أما الذين تمكنوا من النجاة ففروا عبر معسكرهم الى عسقلان ، المدينة التي تبعد قرابة سبعمائة وعشرين استادا عن القدس .

وولى الأفضل الأدبار وقرر الفرار بعد لقائه الأول مع الفرنجة ، علما أنه كان في ذلك الحين يشعر نحوهم

بالازدراء ، وهكذا تخلي عن خيمته مرغما ، وكانت مكدسة بالأموال وأنواع النفاذس ، وقصدها الفرنجة تملأهم نشوة الظفر ، ثم اجتمعوا وقدموا الشكر للرب وحمدوه ، ثم ولجوا الى خيام الأعداء فوجدوا ما أنزلهم من الثروات الملكية من الذهب والفضة والملابس والمجوهرات والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ، فيها اثني عشر صنفا هي : اليشب - والياقوت الأزرق - والعقيق والزمرد ، والجزع العقيقي والبقراني ، والزبرجد والياقوت الزعفراني ، والياقوت الحجري ، كما أنهم وجدوا أوعية كثيرة ، وأشياء أخرى مثل القلائس المرصعة بالذهب ، والخواتم الرائعة والسيوف المحلاة ، والقمح ومختلف الحبوب.

وامضى رجالنا الليلة هناك واحتاطوا حيلة شديدة باحراسة وتيقظوا اعتقادا منهم أن المسلمين سيجددون القتال في اليوم التالي ، لكن الذي حدث هو أن هؤلاء تملكهم الرعب ففروا في الليلة ذاتها ولم يبق منهم أحدا ، وبعدهما تحقق رجال استطلاعنا من هذا الأمر في اليوم التالي ، تعالت الأصوات فرحا بالشكر والمديح ، وهللا للرب وأثنوا عليه لأنه جعل الآلاف المؤلفة من الأعداء يتبعثرون على يد جيش صغير من جند المسيح ، « ومبارك هو الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (المزامير: ١٢٤ / ٦) « وطوبى للأمة التي الرب الهها » (المزامير: ٣٣ / ١٢).

الم يتبجح هؤلاء المصريون ويتعهدوا بألسنتهم قائلين : « لنذهب الى القدس فنحتلها والفرنجة في داخلها ، وبعد أن نذبحهم جميعا ، لنهدم كنيسة القيامة التي يجلوونها وبذلك نزيل أثرها ونمحو ذكرها الى ابد الأبدين » ، وهكذا لم تذهب رحمة الرب سدى ، بل حمل الفرنجة الابل والخيول بثروات المسلمين ، وعندما تعذر عليهم حمل الخيام والرماح والقسي والسهم الى المدينة أضرموها بالنيران ورجعوا مبتهجين الى القدس.

عودة بعض الأمراء الى ديارهم:

بعدها تم تحقيق هذه الانجازات ، رغب بعض الناس في العودة الى ديارهم ، وذلك بعد ما استحموا وتعمدوا بمياه نهر الأردن وجمعوا سعف النخل قرب أريحا ، في مكان عرف باسم حدائق ابراهيم ، وبعد هذا رحل روبرت كونت نورماندي وروبررت كونت الاراضى المنخفضة بالسفينة الى القسطنطينية ، ومنها الى فرنسا ومن ثم الى ممتلكاتهما، اما ريموند فعاد الى اللانقية في سورية وترك زوجته فيها ، ثم اكمل سفره الى القسطنطينية وهو على نية العودة ، وحكم غودفري في القدس بموافقة الجميع ، وهي المدينة التي تعهد بحمايتها والحفاظ عليها ، وبقي معه تانكرد وآخرون.

حج بوهيموند وبلدوين

في تلك الآونة كان بوهيموند - وهو رجل عاقل مدبر مقدم - يحكم في انطاكية ، وفي الوقت نفسه حكم بلدوين أخو غودفري في الرها والبلاد المجاورة في الضفة الأخرى من نهر الفرات ، ولدى سماعهما بأخبار الاستيلاء على القدس على أيدي رفاقهما الذين تقدموهما ، علاهما السرور والبهجة ، وحمدا الرب وشكراه وصليا له ، وبما أن الذين تسابعوا الرحلة الى القدس أصابوا النجاح وعمت عليهم الفوائد ، فقد توجب على هذين القائدين ورفاقهما مضاهاة الآخرين على الأقل بشجاعتهم وان تخلفوا عنهم سنة.

وقضت الضرورات تدبر حماية المدن والاراضى التي انتزعت من الترك بكل صعوبة ، وتوجب أن تكون هذه الحماية عالية العناية والحرص ، ذلك أنه كان بمقدور الأتراك ، بعدما اندحروا الى بلاد الفرس ، استعادة الاراضى بهجوم مباغت ، إذا ما تركت بدون

حماية ، ولو وقع هذا للحق الفرنجة ضررا عظيما اثناء ركوبهم الطريق الى القدس ومنها ، ولعل العناية الربانية هي التي قضت أن يتخلف بوهيموند وبلدوين ، ذلك أنها ارتأت أنهما سيكونان أكثر نفعا فيما سيحدث من مشاركتهما فيما حدث.

والمرات التي أفرغ فيها بلدوين الجهد في قتاله ضد الأتراك في الجزيرة كثيرة ، وكثيرة أيضا رؤوس الترك التي قطعها ، فمن المحال تقدير عددها ، وغالبا ما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الأعداء ، ولكن حالفه النصر بعون من الرب.

وعندما بعث بوهيموند الى بلدوين يقترح عليه أن يقوما مع رجالهما بمتابعة الرحلة الى القدس لأنهما لم يكملها ، أخذ بلدوين بعض الوقت في تدبير أموره و التحضير للسفر ، وفيما بلدوين على ذية السفر سمع أن الأتراك اجتاحوا شطرا من بلاده ، فأجل سفره وأخذ طريقه فورا مع حفنة من رجاله ، وزحف ضد الأتراك مع أنه لم يكن قد جمع جيشه كله للرحلة الى القدس ، وفي أحد الأيام شاهد الأتراك راية بلدوين تقترب منهم ، وكانوا يظنون أنه قد بدأ رحلته الى القدس ، لذلك جلسوا مطمئنين في خيامهم ، وفوجئوا الآن فدب الرعب في قلوبهم ولانوا فورا بالفرار ، وبعدهما طاردهم بلدوين مسافة قصيرة رجع رجاله القلائل وتسابع تنفيذ المشروع الذي عزم على القيام به.

وبدا بلدوين رحلته بالمرور عن يمين أنطاكية حتى وصل الى اللاذقية ، حيث اشترى مالزمه من مؤونة للرحلة ، وأعاد تعبئة أحمال دوابه ، ثم شرع بالرحيل في تشرين الثاني ، وبعدهما مزرنا بجبله التقينا ببوهيموند في بانياس حيث كان قد ضرب خيامه.

وكان معه أسقف من بيزا يدعى ديمبرت ، وكان هذا الأسقف قد ركب البحر الى مرسى اللاذقية مع بعض التسوسكانيين والطلبان ، وقد انتظروا هناك ليسيروا معنا ، وكان هناك أسقف

من أبوليا وأسقف ثالث برفقة اللورد بلدوين ، وقد قدرنا تعداد هذا الحشد من الناس الذين ربطتهم أواصر المودة بخمسة وعشرين الفا من الرجال والنساء فرسانا ورجالا:

وبعدما دخلنا الى بلاد المسلمين ، لم نستطع الحصول من السكان المعادين على الخبز أو اي غذاء آخر نقتات به ، وعانى الكثيرون من شدة الجوع ، وازدادت معاناة الخيول والبهايم من قلة الأعلاف ، وهكذا ساروا دون ان يتمكنوا من الحصول على الغذاء.

وعثرنا في الحقول المزروعة التي اجتزناها على نبات طازج تدعوه العامة باسم « قصب العسل » وهو شديد الشبه بقصب البوص ، واسمه مركب من العسل والقصب وعنه صدرت عبارة « عسل الخشب » كما اظن ، لأن هذا العسل يستخرج بمهارة من هذا القصب ، وقد مضغنا هذا القصب طوال الوقت بسبب مذاق العسل فيه ، لكن ذلك لم يخفف من جوعنا كثيرا .

وفي الحقيقة تحملنا - محبة بالرب - هذا العذاب وكثيرا من المشقات مثل الجوع والبرد والأمطار الشديدة ، واكل كثير من الرجال لشدة الجوع ، الخيل والحمير والجمال ، وقاسينا كثيرا وبشكل متواصل من البرد القارس والأمطار العاصفة ، حتى ان ثيابنا المبتلة كانت ما تكاد تجف في حرارة الشمس حتى ينغص عيشنا وابل جديد من المطر لأربعة أيام أو خمسة.

ولقد رأيت كثيرا من الناس ممن فقدوا خيامهم يموتون من شدة البرد بسبب الأمطار ، كما شهدت أنا فولتشر أوف تشارترز بنفسه في أحد الأيام كثيرا من الناس من الجذسين يلاقون حتفهم بسبب الصقيع وكذلك الكثير من الدواب ، ويطول الوصف ويمل السماع لوذكرنا جميع الآلام والمأسى التي عانى منها شعب الرب.

ولاقى عدد كبير من الفرنجة حتفهم على أيدي المسلمين الذين كمنوا لهم على الممرات الضيقة في الطريق ، وتم اختطاف بعضهم الآخر أثناء بحثهم عن الطعام ، ولقد كنت ترى فرسانا من أصل رفيع وقد غدوا رجالة لفقدانهم خيولهم ، كما كنت ترى الماعز والخراف التي انتزعت من المسلمين ، وقد هدها حمل الأمتعة وتشققت ظهورها وتحطمت من حمل الأثقال ، لأنه لم يبق من البهائم لحمل الأمتعة غيرها.

وحصلنا على الخبز مرتين لا ثالث لهما ، بعدما دفعنا ثمنا باهظا ، وكانت المرة الأولى في طرابلس والثانية في قيسارية ، ويتضح من هذا كله أن الإنسان لا يصل إلى الانجاز العظيم إلا بالبنل العظيم ، وكان وصولنا إلى القدس حقا أمرا جديدا عظيما .

وانتهت بهذه الزيارة إلى القدس مهمتنا التي طال مداها ، وعندما أبصرت عيوننا قدس الأقداس ، التي طال شوقنا إليها ، امتلأت نفوسنا بشعور بالغبطة العارمة ، ومرات كثيرة هي التي تذكرنا فيها نبوءة داود إذ قال : « لنسجد عند موطئ قدميه » (مزامير : ١٢٢ / ٧) ، حقا شهدنا هذه النبوءة تتحقق فينا مع أنها كانت تتعلق بغيرنا ، وصعدنا حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة (مزامير ١٢٢ / ٤) إلى هذا المكان المقدس .

وبدأت الشمس يوم وصولنا إلى القدس تنقلب بعد اكمال هبوطها الشتوي ، وشرعت بالصعود ، وبعد ما قضينا زيارتنا إلى كنيسة القيامة وإلى هيكل الرب المجيد وإلى الأماكن المقدسة الأخرى ، ذهبنا في اليوم الرابع إلى بيت لحم من أجل الاحتفال بميلاد الرب المسيح ، وأردنا أن نسعف أنفسنا بالصلوات تلك الليلة في المهد حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها يسوع ، ثم رجعنا إلى

القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم ، بعدما فرغنا من الابتهاالات المناسبة في الليلة المتقدمة.

ولقد سدت أنوفنا الروائح الكريهة المنتشرة حول أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج ، والتي انبعثت من جثث المسلمين المتفسخة ، وهم الذين أبادهم رفاقنا عند احتلالهم للمدينة وكانت ما تزال مطروحة حيث تم الفتك بها.

وبعدما استجمينا نحن ودوابنا ، ونلنا قسطا من الراحة التي كنا في أشد الحاجة إليها ، وبعدما وقع اختيار الدوق والمقدمين الآخرين على ديمبرت السالف الذكر ليفدو بطريركا في كنيسة القيامة ، تزودنا بالمؤن ووضعنا أثقالنا على دوابنا وهبطنا نريد وادي نهر الأردن ، ولقد أثر بعض الجنود ، خاصة الذين تأخروا بالوصول الى القدس ، البقاء في المدينة ، و اختار الآخرون الذين كانوا قد وصلوا من قبل الذهاب معنا ، واستمر الدوق غودفري يحكم منطقة القدس بيد فولاذية كما فعل من قبل.

شعر :

وحدث في اليوم الثالث لما قبل منتصف أب ، وكان يوما مشؤوما ، أن مات أوربان المبجل ، بابا روما.

عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما:

في العام الف ومائة لتجسيد مولانا المسيح ، وفي اليوم الأول من ذلك العام ، حملنا جميعا سعف النخيل ، بعدما قطعناها في أريحا ، حسبما جرت العادة ، وبدانا رحلة العودة في اليوم التالي .

قد أحب امرأونا العبور بمدينة طبرية ، الواقعة على
بحرها ، وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة - ثمانية عشر
ميلا و عرضه خمسة أميال ، ومن طبرية ارتحلنا الى قيسارية فيليب
التي تدعى بالاسمان السوري بانياس ، وهي تقع على سفح جبل
لبنان ، حيث ينبع جدولان يشكلان نهر الأردن ، ويجري هذا النهر
عبر بحر طبرية الى البحر الميت.

ويذكر يوسف يوس ان عرض بحر طبرية أربعين ستادا وطولها
مائة ، وكانت تعرف باسم جنساريت ويمر النهر من خلالها ، ثم
يصب في البحر الذي يدعى البحر الميت ، لأنه (تكوين
١٩ / ٢٤ - ٢٩) لا يحتوي على أي شيء حي ، ويعرف أيضا
باسم بحيرة اسفلت ، و يعتقد أنه ليس لها قاع ، لأن مدنا مثل
سدوم وعمورة قد انغمرت في جوفها

وكننت قد قرأت في كتاب القديس جيروم عن النبي
عاموس ، وقمت بعناية فائقة بتخمينات بشأن الينابيع التي
ذكرها ، واستخلصت أن دان كانت ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع
بانياس الآن ، ولأن قبيلة دان شيدت مدينة هناك ، دعوها باسم
دان تيمنا بأسماء آبائهم ، ولهذا السبب اعتقد أن أحد هذه الينابيع
كان اسمه دان وكان اسم الآخر الواقع على مقربة منه « جوز » .
ثم وصلنا الى مدينة حصينة اسمها بعالات (تدمر) ، وكان قد
شيدها سليمان ، وعمر حولها أسوارا عالية جدا ، وأطلق عليها
اسم تدمر ، وتقع هذه المدينة على مسيرة يومين من أعالي
سورية ، وستة أيام من باب اليون الكبرى (القاهرة) ومسيرة يوم
من الفرات ، وقد سماها الاغريق بالميرا ، و تكثر حولها الينابيع
والآبار لكن المياه لا توجد في البادية.

وواجهنا هناك نحو أربعمائة من المقاتلين الترك كانوا قد جاءوا
من دمشق ، وقد ظنوا أننا مجهدون من التعب ومنهكون ، ولهذا

خيل اليهم انه بسهولة يمكنهم الحاق المضار بنا ، وفعلا كادوا ان يفعلوا ذلك لولا ان شاء القدر ان يحمي اللورد بلدوين مؤخرتنا في ذلك اليوم بكل عناية وحذر ، ولولا هذا لقتل من رجالنا عدد كبير ، وقد انعدمت فعالية قسيهم بسبب الامطار ، لان عادة اهل تلك البلاد ان يستخدموا الغراء في صنع هذه الاسلحة ، وفي تلك الاثناء قاد بوهيموند المقدمة ، وهكذا لم ينل العدو منا - بعون الرب - اي مغنم.

ثم اقمنا مخيمنا امام البلدة المذكورة ، وفي اليوم التالي اقتربنا اكثر من البحر ، ومررنا امام مدينتي طرطوس واللاذقية ، وفي اللاذقية وجدنا ريموند الذي كنا قد خلفناه هناك ، ولندرة الاغذية لم نجد ما نشتره من المؤن لنقتات به ، ومع هذا تابعتنا سفرتنا غير اننا سارعنا ولم نتوقف حتى وصلنا الى الرها.

اسر الأمير بوهيموند:

وصل بوهيموند الى انطاكية اولا ، حيث رحب به اصداؤه وتلقوه بكل سرور وفرحة ، وقد مكث يحكم لمدة ستة اشهر كما فعل من قبل ، غير انه عندما وصل في شهر تموز مع حفنة من رجاله الى مشارف مدينة اسمها ملطية ، التي كان قد عقد اتفاقا مع صاحبها الذي اسمه جبريل ان يسلمه اياها ، اقترب منه امير اسمه الدانشمند ، وكان على راس قوة كبيرة من الترك ، وسعى الى قطع الطريق عليه ، ولم يكن بوهيموند عارفا بوجوده.

وعلى مقربة من ملطية انقض هؤلاء الاشرار على بوهيموند ، وخرجوا عليه من كمين كانوا قد نصبوه له ، وطرحوه ، ولم يتجرا رجالنا على القتال لقله عددهم وفرروا وتفرقوا بالحال ، لكن بعدما قتل الاترك عددا كبيرا منهم واستولوا

على اموالهم ، ولم يكتف الاترك بهذا بل انهم قبضوا على بوهيموند وقادوه أسيرا، وعندما علم جماعتنا بأنباء هذه الكارثة من الذين فروا ، أصابهم حزن كبير ، وقام بلدوين كونت الرها فحشد كل من وجده من فرنجة الرها وانطاكية ، ثم انطلق بلا تأخر لملاحقة العدو حيث سمع بوجوده ، وكان بوهيموند قبل وقوعه بالأسر قد قص خصلة من شعره ، وبعث بها الى بلدوين حسب اتفاق متقدم بينهما ورجاه محبة بالرب ان يقدم الى نجدته على الفور ، وكان الدانشمند يحاصر مدينة ملطية لكنه عندما سمع بتحرك بلدوين خشي مغبة ذلك ، فأوقف الحصار ، وانسحب خشيية من مواجهتنا ، وتمكن بذلك من العودة الى بلاده ، واصابتنا خيبة أمل شديدة لذلك ، فقد طاردنا الأتراك لمدة ثلاثة أيام بدون جدوى ، وكنا نتوق للاشتباك معهم بالمعركة ، ثم عدنا الى ملطية ، فسلمها جبريل إلينا بعدما وطد أواصر الصداقة مع بلدوين ، ودخل بلدوين الى ملطية وخلف بعض رجاله فيها ثم عاد الى مدينة الرها ، وأثر هذا عاد رجال أنطاكية الى مدينتهم بعدما فقدوا قائدهم.

موت الملك غودفري:

ولم يستمتع بلدوين برغد العيش طويلا حتى وصل اليه رسول من القدس يحمل اليه خبر موت الملك قبل بداية شهر أب بخمسة عشر يوما.

شعر:

وفي مطلع السنة بعدما سقطت المدينة
اعطاك الرب أيها الدوق غودفري الحكم كتاج من التقدير لكن لم
يدم طويلا.

- ٢٧٨٦ -

تمتعك به لأن الطبيعة قضت بهلاكك.
وعندما دخلت الشمس الصاعدة في برج الأسد
صعدت أنت الى عليين مسرورا يحمك الملاك ميكائيل.